من المقاصد الإنسانيّة

لأهمِّ التحوّلات اللغويّة

دراسة تطبيقيّة في بعض الآيات القرآنيّة

دكتور

أحمد أحمد لقبه حشمت طايع

مدرس أصول اللغة

كلية الدراسات الإسلاميّة والعربيّة – جامعة الأزهر

فرع قنا

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

من المقاصد الإنسانيّة لأهمِّ التحوّلات اللغويّة

دراسة تطبيقيّة في بعض الآيات القرآنيّة .

أحمد أحمد لقبه حشمت طايع

قسم أصول اللغة – كلية الدراسات – جامعة الأزهر – فرع قنا

الإيميل: ahmed_heshmat@azhar.edu.eg

الملخص

بسم الله الرحمن الرحيم

المقاصد الإنسانيّة هي علم ما به يحصل الكمال وهو علم الأخلاق, وأجلُّه الوصول إلى الحضرة الصَّمَدانيّة, والسلوك لطريقة الاستقامة.

والتحوّلات اللغويّة هي تغيير في نظام الجملة العربية لأغراض معيّنة مثل: تقديم المفعول, وحذف المضاف , واستعمال لفظ دون آخر, وغير ذلك مما كان له غرض وفائدة.

والمقاصد الإنسانيّة في القرآن معناها الغايات والفوائد التي يستشعرها الإنسان تجاه الخالق – سبحانه– أو تجاه خلق الله كُلِّهم حين يقرأ القرآن بتدبّر وخشوع, ويُطالع تفسيره , وسميتها بالمقاصد الإنسانيّة نسبة إلى الإنسان؛ لأنه هو المُتلقِّي للقرآن القارئ له المتدبِّر لمعانيه – قال ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ المتفقِّه فيه المستشعر للغايات.

أيضًا القرآن نزل بلسان عربيٍّ مبين أي على نمط لسان العرب – الذين هم من بني البشر والإنسان – وطرائقها, وسننها, ومقاصدها , واستشعاراتها.

وعليه فإنّ المنوط بهذا البحث الكشف عن بعض المقاصد الإنسانيّة لأهمِّ التحوّلات اللغوية حيث إن في تحوّلات التراكيب العربية أو الألفاظ اللغوية أسرارًا عالية, وغايات إنسانيّة في جميع الأمور الدينيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة .

الكلمات المفتاحية: مقاصد – إنسانيّة – التحوّل – الدينيّة – الاجتماعيّة – الاقتصاديّة – الثقافيّة.

From the human purposes of the most important linguistic transformations

An applied study in some Qur'anic verses.

Ahmed Ahmed Lakabo Heshmat Tayea - Department of Linguistics - Faculty of Studies - Al-Azhar University - Qena Branch

Email : ahmed_heshmat@azhar.edu.eg

Abstract:

In the name of God, the most gracious, the most merciful

The topic: (**from human purposes to the most important linguistic shifts**)

An applied study in some Quranic verses .

The human intentions are the science of what perfection is achieved,and it is the science of morals, and its ultimate goal is to reach the Eternal Presence, and to follow the path of uprightness

Linguistic shifts are a change in the system of the Arabic sentence for specific purposes, such as: introducing the object, deleting the genitive, using one word without another, and other things that had a purpose and benefit .

Human purposes in the Qur'an mean the goals and benefits that a person senses towards the Creator - glory be to Him - or towards all of God's creation when he reads the Qur'an with contemplation and reverence, and reads its interpretation. Because he is the recipient of the Qur'an, the reciter of it, the one who contemplates its meanings - God said, "Let them contemplate His verses that are agreed upon in it, and the one who feels the goals."

Also, the Qur'an was revealed in a clear Arabic tongue, that is, in the style of the tongue of the Arabs - who are human beings and humans - and its methods, norms, purposes, and sensations.

Accordingly, this research is entrusted with revealing some of the human intentions of the most important linguistic transformations, since in the transformations of Arabic structures or linguistic expressions there are lofty secrets, and human goals in all religious, social, economic and cultural matters

Keywords: purposes - human - transformation - religious - social - economic - cultural.

مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين, والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد,,,

فالقرآن الكريم– عزّ مَن أنزله– الصادر من الخالق إلى المخلوق فيه المعجزات والأسرار التي لا تنتهي, وقد أنعم الله على عبده الفقير إليه بقطرة من هذه الأسرار تمثَّلت في بعض المقاصد الإنسانيّة والإشعارات الدلاليّة لأهمّ التحوّلات اللغويّة التي أشار إليها علماؤنا العرب قديما وجدَّدها علم اللغة الحديث فيما يُعرف بالنظريّة التحويليّة .

والمقاصد الإنسانيّة هي :"علم ما به يحصل الكمال وهو علم الأخلاق, وأجلُّه الوصول إلى الحضرة الصَّمَدانيّة, والسلوك لطريقة الاستقامة في منازل هاتيك الرتب العلية وإليه الإشارة بقوله إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ "(١) (٢)

وليسأل سائل: كيف تقول بالمقاصد الإنسانيّة في القرآن وهو من عند الله؟ فالجواب أنّ القرآن بين المُرسِل(الله سبحانه) وبين المُرسَل إليه(المخلوق), فالمخلوق هنا هو المُتَلقِّي للقرآن هو الإنسان الذي كرّمه الله وسخّر له كل

١– سورة الفاتحة آية ٥ – ٦.

٢– روح المعاني للألوسي تح / د علي عبد الباري عطية ٣٨/١ – دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ

شيء وأنزل إليه كتابه الكريم ليتعبده به, ويتأمل ويتدبر فيه, فيستخرج منه المقاصد التي يستشعرها الإنسان تجاه الخالق –سبحانه– أو تجاه خلق الله كُلِّهم؛ فلهذا سميتها بالمقاصد الإنسانيّة نسبة إلى الإنسان؛ لأنه هو المُتلقِّي للقرآن القارئ له المتفقِّه فيه المتدبِّر لمعانيه كما قال الله ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[1]

أيضًا القرآن نزل بلسان عربيٍّ مبين أي على نمط لسان العرب – الذين هم من بني البشر والإنسان – وطرائقها, وسننها, ومقاصدها , واستشعاراتها.

وحينما أقول المقاصد الإنسانيّة للتحوّلات اللغوية أي: الأمور العظيمة التي يستنبطها الإنسان حين يقرأ القرآن بتدبّر وخشوع, ويُطالع تفسيره حيث إنه يستشعر أسرارًا عالية ويستنتج غايات إنسانيّة في تحوّلات التراكيب العربية أو الألفاظ اللغوية في جميع الأمور الدينيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة

لذا استعنت بالله وحوله وقوته في كتابة بحث في هذا النوع من اللسانيات الحديثة محلِّلًا له ومطبِّقًا على بعض الآيات القرآنية التي ظهرت وبرزت فيها المقاصد الإنسانيّة بجلاء ووضوح تام, و سميَّته (من المقاصد الإنسانيّة لأهمِّ التحوّلات اللغويّة دراسة تطبيقيّة في بعض الآيات القرآنيّة)

وجاء البحث في مقدِّمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة وفهارس عامة.

أما المقدِّمة ففيها أهمية الموضوع, وسبب اختياره , والتمهيد يشمل التعريف بالتحوّلات اللغوية وأثرها قديما وحديثا, والمباحث الأربعة مصنَّفة حسب

---

١ – سورة ص من الآية ٢٩.

المقاصد الإنسانيّة في كل ناحية من النواحي الأربع(الدينيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة), والخاتمة فيها أهم النتائج, والتوصيات.

أمّا عن المنهج المتبع في هذه الدراسة فهو المنهج الوصفي التحليلي الذي هو من أساسيات علم اللغة التطبيقي الذي يربط الواقع باللغة, ويصف لسان المجتمع في جميع نواحيه العلميّة والعمليّة.

وبالنسبة للدراسات السابقة – وقد كانت أساس المشكلات والصعوبات – فلم أعثر على كتب أو أبحاث في المقاصد الإنسانيّة للتحوّلات اللغويّة, وأنّ هذا الموضوع من قراءتي وتدبري.

وتأتي أهميّة الموضوع في أنّه دراسة لغويّة واقعيّة تعالج مظهرًا من مظاهر اللغةَ وتُطبقُه على أهمّ نواحي الحياة للكشف عن المقاصد الإنسانيّة وراء هذه التحوّلات اللغويّة , ومدى مواكبة اللغة العربيّة لأحداث الحياة ومستجداتها؛ لأجل هذا اخترت(انتقيت) بعض النماذج التي يُعبِّر فيها كلُّ نموذج عن مجال معيّن من مجالات الحياة التي سلكت البحث فيها؛ لأفتح بها الأبواب أمام الباحثين , وللوقوف على بعض النتائج المُهِمّة.

أمّا عن أهمِّ المصادر التي سُقِيَ بها البحث واعتمد عليها فهي كتب التفاسير وعلى رأسها التحرير والتنوير لابن عاشور , وإشارات داخل كتب اللغة والبلاغة ؛ لذا جاء البحث ذا جناحين الأوّل: ديني, والثاني: لغوي .

وقد كان اهتمامي بعلم اللغة التطبيقي من أقوى الأسباب في اختيار وعمل بحث في هذا الشأن؛ لأنَّ هذا العلم يربط بين اللغة والمعارف العامّة للإنسانيّة , ويقوم بتطبيقات متنوعة لعلوم اللغة في ميادين واسعة , ويسعى إلى أهداف عمليّة نفعيّة, ومجالاته متشعبة في جميع نواحي الحياة.

وأعتذر إلى ربي – سبحانه – من التقصير والزلل , وأطلب من الله – تبارك وتعالى – العفو والمغفرة عن النسيان والخطأ, وأسأل الله – تبارك وتعالى– الهداية والعلم والإخلاص والنفع والقبول, إنّه وليّ ذلك والقادر عليه, وسبحان الله ربِّ العرش العظيم.

د/ أحمد أحمد لقبه حشمت طايع

مدرس أصول اللغة

الخميس ١٧ من شعبان ١٤٤٤هـ – ٩ من مارس ٢٠٢٣م

تمهيد:

التعريف بالتحوّلات اللغويّة وأثرها قديما وحديثا

الكلام يقوم على المقاصد والأغراض أي أنّه يُبَلور بالتعديل والتغيير حسب المواقف والأغراض, **والتحويل في اللغة العربيّة** هو تغيير في نظام الجملة العربية لأغراض معيّنة مثل: تقديم المفعول, وحذف المضاف, والاعتراض, وزيادة كلمة أو أكثر, واستعمال لفظ دون آخر, وغير ذلك مما كان له غرض وفائدة.

وقد أشار علماؤنا القدامى إلى هذا التحويل فقال سيبويه في تقديم المفعول من أجل الاهتمام والعناية:" فإن قدمتَ المفعولَ وأخَّرتَ الفاعل...وذلك قولك: ضَرَبَ زيداً عبدُ الله ... كأنّهم إنَّما يقدّمون الذي بيانه أهمّ لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يُهِمّانِهم ويَعْنِيانهم"(١)

وذكر الأشموني الغرض من التمييز المحوّل عن الفاعل فقال:" وقد حُوِّل الإسناد عنه إلى غيره لقصد المبالغة"(٢) نحو طاب محمّدٌ خُلُقا , وفاحت الحديقة عطرا, والأصل: طاب خلقُ محمدٍ , وفاح عطرُ الحديقةِ.

فالملاحظ أنّ معظم التحوّلات في اللغة العربيّة تكون لمقاصد معيّنة وأغراض مطلوبة.

---

١ – الكتاب لسيبويه: تح/ عبد السلام محمد هارون ٣٤/١–مكتبة الخانجي، القاهرة– الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

٢ – شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ٥٢/٢– دار الكتب العلمية بيروت– لبنان – الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م

أما عن التحوّلات اللغويّة في العصر الحديث" فقد ترأس هاريس Harris ومعه تلميذه نعوم تشومسكي Chomsky نظرية النحو التحويلي التوليدي, ونقل بعض المحدثين عن هاريس تعريف التحويل فقال :"عملية نحوية تغير ترتيب المكونات في داخل جملة ما، وبوسعها حذف عناصر أو إضافتها أو استبدالها "[١].

وتعتمد هذه النظريّة على شيئين, الأول: (التوليد), وهو عملية ذهنية أو عقليّة تُنْتِجُ جملا كثيرة متنوعة مقبولة لغويا , وهو ما يُسَمَّى بالبنية العميقة,

الثاني : (التحويل) هو قواعد تُحوِّل البنية العميقة إلى بنية سطحيّة مثل تغيير الترتيب في الجملة, والحذف , والزيادة, وغير ذلك, بمعنى أنها تنتقل من المرحلة الذهنية أو العقلية إلى المرحلة المحسوسة والملموسة نطقيّا وكتابيّا [٢]

فمثلاً في الحذف قوله تعالى:" ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾[٣] تجد أنّ المسند المحذوف مُدْرَك وموجود في مستوى البنية العميقة (أي: العقليّة) لدى السائل, والتقدير (وإن استجارك أحد .....) وإنما

١- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي : د / رمضان عبد التواب- ص ١٨٨ , ١٨٩ : مكتبة الخانجي بالقاهرة -

الطبعة: الثالثة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

٢- ينظر: علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية د/ عبده الراجحي ص ١٩ , ٢٠ - طبعة دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية - ١٩٩٥م ,

و الجهود اللسانية عند مازن الوعر :رسالة دكتوراه/ عامر بن شتوح ص ٤٤ - جامة قاصدي مرباح ورقلة - كلية الآداب واللغات - الجزائر ٢٠١٤م

٣ - سورة التوبة من الآية ٦

حذفه (أي: طبّق عليه قاعدة التحويل بالحذف)؛ للاهتمام بشأن المستجير وسرعة حمايته وإجارته .

وأودّ الإشارة إلى أنّ هذا النوع من البحث هو من الأبحاث التطبيقيّة التحليليّة المختصة بعلم اللغة التطبيقي الذي يبحث حول دور اللغة في جميع مجالات الحياة المختلفة كالمجال الديني والاجتماعي والصحي والاقتصادي وغيرها, فيدرس اللغة بين الطبيب والمرضى , بين المعلم والطلاب, بين الأب وأبنائه, وتأتي أهمية هذا العلم في أنه يُظهِر عملية التفاهم من عدمه , ويُبرِز التعاون, أو التسلط, ويُبيّن عوامل التأثير والتأثّر , ويسعى إلى أهداف واقعيّة, ونتائج عمليّة.

كذلك:" يهتم علم اللغة التطبيقي بتعلم اللغات وتدريسها وكيفية الاستفادة من النظريات التربوية في تدريس اللغة ويتعامل علم اللغة التطبيقي مع العديد من الموضوعات مثل علم اللغة النفسي ، وعلم اللغة الاجتماعي ، والترجمة ، وتعليم اللغات ، والتحليل المقارن وتحليل الأخطاء ، والكلمات الشائعة، والقواعد التعليمية ، واختبار اللغة ، وتحليل الخطاب ، والمعجم ، وسياسة اللغة ، وتخطيط اللغة وغيرها"[١]

وخلاصة الأمر أنّ علم اللغة التطبيقي ميدان تلتقي فيه علوم مختلفة لها اتصال بلغة الإنسان, وهو الذي يهيمن على التخطيط , ويعمل على تحسين

١ – علم اللغة التطبيقي في التراث العربي (الجاحظ نموذجا)– دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية: المؤلف/ جاسم علي – مجلد ٤٠ – عدد ٢
ص ٢٩٥ – ٣١٤ – مايو – ٢٠١٣م.

كفاءة عمل عملي ما , تكون اللغة هي العنصر الأساسي فيه, وهو علم متعدد المصادر والروافد , ويربط اللغة بالواقع , ويستنتج المهامّ والفوائد[١]

وقد كان لعلم اللغة التطبيقي النصيب الأكبر في ربط التحوّلات اللغويّة بقضايا المجتمع الإنساني(دينيّاً واجتماعيّا واقتصاديّا وثقافيّا) ؛ لأن اللغة بنت المجتمع تؤثر فيه وتتأثر به فكان البحث الذي أمامكم قائماً على التطبيق اللغوي والاستنتاج المعرفي الواقعي حول القراءة في تفسير كلام ربِّ العالمين, والذي سيبرز في صورة المقاصد الإنسانيّة لبعض التحوّلات في اللغة العربية, وهذه المقاصد تنبع وتبرز من اجتماعيّة اللغة وارتباطها بالإنسان.

وعليه فإنَّ هذه التحوّلات اللغويّة وما تقوم عليه من قواعد وأسس تمثِّل في مواضعها زِمَام المعنى الإنساني المقصود؛ لأنها هي الوسيلة المُعبِّرة والمُكوِّنة والحاملة لهذه المقاصد الإنسانيّة, ومن دونها يضيع المعنى الإنساني المرتبط بها , وتذهب صورته التعبيريّة أو التركيبيّة.

١ – ينظر: علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية د/ عبده الراجحي ص ١٣ – ١٧ بفهم وتصرف.

المبحث الأول : المقاصد الإنسانيّة لأهمّ التحوّلات اللغوية في الناحية الدينيّة

الدين الإسلامي مصدر الإنسانيّة وأساسها, وعلى رأس هذا المصدر القرآن الكريم, حيث إنّه حوى مقاصد كثيرة ورسالات عظيمة وإرشادات مستقيمة لخلق الله أجمعين, وعلى رأسهم الإنسان الذي كرّمه الله – تبارك وتعالى– وسخّر له كل شيء, وأمره أن يقرأ القرآن ويتدبر فيه ويتأمل معانيه.

وقد شرّف الله اللغة العربيّة, وأكرم نبيّه الأميّ العربيّ سيّدنا محمدًا – صلى الله عليه وسلم– فأنزل القرآن بلسان عربي مبين, وضمّنه معجزات لا تنفد , وأسرارًا لا تنتهي , وغايات لا تُحصى, من هذه ما يُسمَّى بالمقاصد الإنسانيّة التي يستنبطها الإنسان المتدبّر للقرآن, وقد ظهرت هذه المقاصد بجلاء في التحوّلات اللغويّة العربيّة.

لذا عمدت إلى كتابة وُرَيْقات في المقاصد الإنسانيّة لأهمّ هذه التحولات الواردة في الناحية الدينيّة في بعض الآيات القرآنيّة.

فمثلا قوله تعالى﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1] لو قرأنا حول هذه الآية التي جُمِعَت فيها الفاتحة, وتدبّرنا فيها لوجدنا فيه تحوّلات لغويّة متعددة لمقاصد إنسانيّة متنوعة, أبرزها ما يلي:

---

١ – من سورة الفاتحة آية ٥

*– والسر في أنّ (إيّا) اسم مضمر (أي: ضمير) وليست اسما ظاهرا كونها منصوبة دائما, وليس في الأسماء الظاهرة اسم يلزمه النصب إلا ما كان ظرفا =

التحوّل الأول: تقديم الضمير المنصوب (إيّاك) على عامله(نعبد) وكذا في (إيّاك نستعين).

يحكي عبقريّ اللغة (ابن جنيّ) عن الضمائر , ويُصدِر عليها حُكمًا لُغويّا فيقول:" جميع الأسماء المضمرة مبني غير مشتق نحو: أنا، وأنت، وهو، وهي، وقد قامت الدلالة على كون "إيا" اسمًا مضمرًا * فيجب أن لا يكون مشتقًا " [1]، وعدم اشتقاقه يدل على انفراده , فهو متناسب لفظا ومعنى في التعبير عن الله – سبحانه وتعالى– يُشبِهُ في عدم اشتقاقه لفظَ الجلالة(الله) بأنه جامد غير مشتق على الراجح[2] , وعدم اشتقاق لفظ (الله) يدلّ على الانفراد في الاسم والذات, هذا من ناحية.

=

وليس (إيا) بظرف , وإنما لزمتها الحروف التي بعدها ؛ لتوضيح إبهامها, ولهذا استعملت(إيّا) مع الحروف الدالة على الخطاب مثل(إياك) وأخواتها, أو

التكلم نحو (إيّاي) وأخواتها , أو الغيبة مثل (إيّاه) وأخواتها. ينظر: الإغفال لأبي علي الفارسي تح د/ عبدالله بن عمر ٧٤/١ – طبعة المجمع الثقافي – أبو ظبي – ٢٠٠٣م – ١٤٢٤هـ بتصرف.

أمّا السبب في بناء الضمائر عامّة فلشبهها بالحرف وضعا وافتقارا وجمودا واستغناء كما ذكر ابن مالك في شرح التسهيل: تح/د عبدالرحمن السيد وغيره ١٦٦/١ , ١٦٧ , ط١ – هجر للطباعة والنشر – ١٩٩٠م ١٤١٠هـ , و(إيّا) بُنيت لافتقارها إلى الحرف بعدها , ولجمودها أي: عدم اشتقاقها.

١ – سر صناعة الإعراب لابن جني ٢٩٨/٢ – دار الكتب العلمية بيروت–لبنان الطبعة: الأولي ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م.

٢ – ينظر: سفر السعادة وسفير الإفادة للسخاوي تح/ محمد الدالي ١/ ١٥ تقديم د. شاكر الفحام (رئيس مجمع دمشق) دار صادر الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م.

ومن ناحية أخرى – وهي مناط البحث – فإنّ تقديم هذا الضمير المنصوب على فعله وَراءه مقاصد إنسانيّة وإشعارات دلاليّة من جهة المخلوق إلى الخالق – سبحانه وتعالى– مِن أهمِّها:

١– اهتمام المخلوق بالخالق البارئ (عزّ وجلّ).

قال سيبويه :" كأنّهم إنَّما يقدّمون الذي بيانه أهمّ لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يُهِمّانِهم ويَعْنِيانهم"[١] **وعلّق الزمخشري** فقال :" لأنّ الأهمّ من الفعل والمتعلِّق به هو المتعلَّق به "[٢] **وذكر**

ابن عطيّة:" وقدّم المفعول على الفعل اهتماما، وشأن العرب تقديم الأهمّ"[٣]

وعلى هذا فالتقديم للاهتمام بالخالق, وتعظيم شأنه في العبادة وفي طلب العون منه والاستعانة به, وهذا الاهتمام من أعظم المقاصد الإنسانيّة من المخلوق تجاه الخالق– سبحانه – وقد أخبر الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن هذا الاهتمام وجزائه بنماذج كثيرة منها قوله :" احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ

---

١ – الكتاب لسيبويه: تح/ عبد السلام محمد هارون ٣٤/١–مكتبة الخانجي، القاهرة– الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

٢ – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ٣/١– دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

٣ – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية :تح/عبد السلام عبد الشافي محمد ٧٢/١– دار الكتب العلمية بيروت

الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ.

بِـاللَّهِ،....."[1] فـأول اهتمـام يفعلـه العبـد مـع الله هـو حفـظ الله فـي العبـادة والطاعة , وسؤاله والاستعانة به في كلّ الأمور , فإن فعل العبد ذلـك فـإنّ الله يحفظه ويستجيب له ويُعينه.

٢- التأدُّب مع الله -عزّ وجلّ-

أيضـاً النـاظر فـي هذا التقديم يجد وراءه مقصـدا إنسـانيّا تربويّـا عاليًـا وهـو تأدب الخلائق مع الخالق البارئ في تقديم اسمه على فعلهم, **وقد صرَّح بـه ابن القيّم** فقال:" وَأَمَّا تَقْدِيمُ الْمَعْبُودِ وَالْمُسْتَعَانِ عَلَى الْفِعْلَيْنِ، فَفِيهِ: أَدَبُهُمْ مَعَ اللَّهِ بِتَقْدِيمِ اسْمِهِ عَلَى فِعْلِهِمْ، وَفِيهِ الِاهْتِمَامُ وَشِدَّةُ الْعِنَايَةِ بِهِ، وَفِيهِ الْإِيذَانُ بِالِاخْتِصَاصِ، الْمُسَمَّى بِالْحَصْرِ، فَهُوَ فِي قُوَّةِ: لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ، وَلَا نَسْتَعِينُ إِلَّا بِكَ، وَالْحَاكِمُ فِي ذَلِكَ ذَوْقُ الْعَرَبِيَّةِ وَالْفِقْهُ فِيهَا، وَاسْتِقْرَاءُ مَوَارِدِ اسْتِعْمَالِ ذَلِكَ مُقَدَّمًا، وَسِيبَوَيْهِ نَصَّ عَلَى الِاهْتِمَامِ، وَلَمْ يَنْفِ غَيْرَهُ"[2]

فلزوم الأدب والتأدُّب والاستحياء تجاه الله – سبحانه – إشعار إنسانيّ يُشير إلى الإيمان الفطريّ والمنهج التربويّ , والدستور الأخلاقيّ.

وألمح ابن القيم إلى شأن عظيم في هذا التقديم فيقول:" وَلَا عِبْرَةَ بِجَدَلِ مَنْ قَلَّ فَهْمُهُ، وَفُتِحَ عَلَيْهِ بَابُ الشَّكِّ وَالتَّشْكِيكِ، فَهَؤُلَاءِ هُمْ آفَةُ الْعُلُومِ، وَبَلِيَّةُ الْأَذْهَانِ وَالْفُهُومِ، مَعَ أَنَّ فِي ضَمِيرِ " إِيَّاكَ " مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى نَفْسِ الذَّاتِ وَالْحَقِيقَةِ مَا لَيْسَ فِي الضَّمِيرِ الْمُتَّصِلِ، فَفِي: إِيَّاكَ قَصَدْتُ وَأَحْبَبْتُ مِنَ

---

١ – سنن الترمذي تح/ إبراهيم عطوة, وغيره : رقم ٢٥١٦- ٦٦٧/٤ – مطبعة مصطفى البابي الحلبي ط٢ – ١٩٧٥م

٢ – مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية :تح/محمد المعتصم بالله البغدادي ٩٨/١ –

دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م

الدِّلَالَـةِ عَلَـى مَعْنَـى حَقِيقَتِـكَ وَذَاتِـكَ قَصْـدِي، مَـا لَـيْسَ فِـي قَوْلِـكَ: قَصَـدْتُكَ وَأَحْبَبْتُكَ، وَإِيَّاكَ أَعْنِي فِيهِ مَعْنَى: نَفْسَكَ وَذَاتَكَ وَحَقِيقَتَكَ أَعْنِي"[١].

فابن القيّم يشير إلى أنّ في الضمير المنفصل وتقديمه الاهتمامَ بالذات, والحقيقة الإلهيّة, وقَصْدَها وحُبَّها, ما ليس في الضمير المتصل.

وقد أشار الشيخ الشعراوي إلى الفرق بين (إيّاك نعبد) بالتقديم و(نعبدك) بالتأخير فقال:" وفَرْق بين أنْ نقول: نعبدك, و (إياك نعبد) : نعبدك لا تمنع أنْ نعبد غيرك، أمّا (إيَّاك نَعْبد) فتقصر العبادة على الله – عَزَّ وَجَلَّ ، ولا تتجاوزه إلى غيره"[٢]

فالشعراوي - رحمه الله - يستنتج مقصدا إنسانيّا آخر - وراء هذا التقديم - وهو إعلان التبرئة من الشرك بالله, واختصاص العبوديّة لله وحده.

١ – مدارج السالكين ٩٨/١, ٩٩.

٢ – تفسير الشعراوي= الخواطر للإمام محمد متولي الشعراوي ١١٢٤٣/١٨ – الناشر: مطابع أخبار اليوم.

التحوّل الثاني: العدول عن ضمير الغيبة إلى ضمير الخطاب.

الذي يقرأ في كتب اللغة يجد أنّ " من سنن العرب الرجوع من الكناية إلى الخطاب" [١]," والأصل في الخطاب أن يكون لمعيّن، غير أنّه قد يخرج عن وضعه، فيخاطب به غير المشاهد والمعيّن إذا كان غير المشاهد مستحضرا في القلب "[٢], كما في الآية هنا, ومن يتأمَّل في هذا العدول يجد في حالة الخطاب مقاصد إنسانيّة عجيبة وأسرارًا عميقة يجب اتخاذها واقتناؤها , لعلّ أهمَّها:

- **حُسْن الظنّ في القُرب والتقرُّب من الله, وملاقاته – سبحانه – يوم الجزاء بدون حجاب.**

قال ابن الأثير:" ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) فخاطب بالعبادة إصراحا بها، وتقرُّبا منه عز اسمه بالانتهاء إلى محدود منها"[٣]

فالملاحظ أنّ ابن الأثير أشار إلى الغاية الأولى من الخطاب وهو التقرُّب من الله , والتقرّب من الله يسبقه حسن الظن كما قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا

---

١ – فقه اللغة وسر العربية للثعالبي: تح/ عبد الرزاق المهدي ص ٢٢٦ – دار إحياء التراث العربي الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

٢ –علوم البلاغة «البديع والبيان والمعاني» الدكتور محمد أحمد قاسم، الدكتور محيي الدين ديب ٣٢٢/١– المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس – لبنان
الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣ م.

٣ – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير:تح/حمد الحوفي، بدوي طبانة ١٣٧/٢– دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، الفجالة . القاهرة

عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي.... وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا....." [١]

وتَدبّرَ وتَعمّقَ صاحب تفسير روح البيان حول هذا العدول فقال:" قوله (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) رجع إلى الخطاب من الغيبة؛ لأنه ليس بين المملوك ومالكه إلا حجاب مَلِكِ نفسِ المملوكِ فإذا عَبَر من حجاب مَلِكِ النفسِ وَصَل إلى مشاهدة مالكِ النفس"[٢]

واعتمد هذا المعنى الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره:" وَإِذَا قُلْتَ: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) إِلَخْ فَتَذَكَّرْ أَنَّكَ تُخَاطِبُ هَذَا الرَّبَّ الْعَظِيمَ كِفَاحًا بِمَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ صَادِقًا فِيهِ ...[٣]

وصرّح به الشيخ الشعراوي فقال:" ولم يَقُلْ: إياه نعبد، متابعة للغيبة، بل تحوَّل إلى ضمير الخطاب ... لأن العبد بعد أن استحضر صفة الجلال والعظمة أصبح أَهْلاً للمواجهة والخطاب المباشر مع الله عَزَّ وَجَلَّ "[٤]

ويُشير صاحب التحرير إلى قيمة هذا الالتفات أو العدول فيقول :" وَمَا هُنَا الْتِفَاتٌ بَدِيعٌ فَإِنَّ الْحَامِدَ لَمَّا حَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى وَوَصَفَهُ بِعَظِيمِ الصِّفَاتِ بَلَغَتْ بِهِ الْفِكْرَةُ مُنْتَهَاهَا فَتَخَيَّلَ نَفْسَهُ فِي حَضْرَةِ الرُّبُوبِيَّةِ فَخَاطَبَ رَبَّهُ بِالْإِقْبَالِ"[١]

---

١ – صحيح البخاري: رقم ٧٤٠٥ – ١٢١/٩.

٢ – روح البيان للشيخ العلامة إسماعيل حقي الإستانبولي الخلوتي ١٩/١ – دار الفكر – بيروت

٣ – تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ٨٦/١ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة النشر: ١٩٩٠ م.

٤ – تفسير الشعراوي ٧٩٩٥/١٣

وبهذا يتبيّن أنَّ الخطاب مع الله- سبحانه – فيه حسن الظنّ من الإنسان بالقرب والتقرُّب من الله دائما؛ لأنّ الله قريب منّا دائما, وهو مقصد عظيم من الإنسان تجاه الله – تبارك وتعالى- واستحضار عظمة الله- تبارك وتعالى – وفي ملاقاته -سبحانه- يوم الجزاء كِفاحًا أو بدون حجاب؛ مصداقًا لقوله تعالى﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾ [٢] وقوله تعالى﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[٣]. وقول الرسول – صلى الله عليه وسلم- : " يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي.... وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا....." [٤] وفي رواية أخرى:"قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِي بِي، " [٥]

وعليه فإنّ الخطاب مع الله يستلزم القرب, والقرب من الله يستلزم حسن الظن, وحسن الظنّ غاية عظمى, ومقصد جميل في الوصول إلى محبّة الله, وفي ملاقاة الله -سبحانه- بدون حجاب يوم القيامة.

=

١ – التحرير والتنوير ١/ ١٧٩

٢ – سورة البقرة من الآية ٤٦

٣ – سورة القيامة آية ٢٢ , ٢٣

٤ – صحيح البخاري: رقم ٧٤٠٥ – ١٢١/٩.

٥ – الفوائد لأبي القاسم تمام البجلي الدمشقي تح/حمدي عبد المجيد السلفي برقم ٤١٦- ١٧٧/١- الناشر: مكتبة الرشد -الرياض -الطبعة: الأولى، ١٤١٢

وأيضًا من المقاصد الإنسانيّة في الخطاب مع الله :

-الإحساس الدائم بحضور المولى-عزّ وجلّ- وأنّه لا يعزُب عن علمه شيء في هذا الكون.

وهو مقصد وشأن عظيم من جهة الإنسان حينما يستشعر ويحسّ من خلال الخطاب حضورَ قيُّومِ السمواتِ والأرض في كلِّ لمحة ونفس, مصداقًا لقوله تعالى:" وهو معكم أينما كنتم"[١]

وقوله تعالى:"ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم"[٢] وكما جاء في مقام الإحسان في الحديث

الشريف "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك[٣]

وما دام الله – سبحانه- حاضرًا لا يغيب فلا يعزب عنه مثقال ذرّة في هذا الكون ولا يفلت منه شيء

مصداقًا لقوله تعالى:" ولا يعزب عن ربك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض"[٤].

فهذا كله يشير إلى أنّ الله معنا بعلمه وقدرته في كل أحوالنا , ولكن يبقى على الإنسان ضبط اعتقاده إن كان متذبذبا, وتزويده بالتقوى حتى يصل إلى

---

١ – سورة الحديد من الآية ٤

٢ – سورة المجادلة من الآية ٧

٣ – صحيح البخاري: رقم ٥٠ – ١ /١٩

٤ – سورة سبأ من الآية ٣

حسن الظنّ والاعتقاد وهو غاية عظمى من الإنسان في تعظيم الله الخالق بالقرب منه واتباع أوامره ونواهيه.

التحوّل الثالث: العدول عن ضمير الإفراد إلى ضمير الجماعة.

كذا من يتأمّل هنا يجد أنّ في التحوّل إلى ضمير جماعة المتكلمين مقاصد إنسانيّة عظيمة يمكن إبرازها فيما يلي:

- **المبالغة في التعظيم والثناء على الله – تبارك وتعالى-** .

يُشيرُ بعضُ اللغويين إلى أنّ:" لَفظ الْجمع فِي مقَام الْإِفْرَاد يدل على التَّعْظِيم كَقَوْلِه: أَلا فارحموني يَا إِلَه مُحَمَّد وَكَذَا لفظ الْإِفْرَاد فِي مقَام الْجمع قد يدل عَلَيْهِ كَمَا فِي حَدِيث أبي مُوسَى الْأَشْعَرِيّ:" إِذا مرت بك جَنَازَة يَهُودِيّ أَو نَصْرَانِيّ أَو مُسلم فَقومُوا لَهَا "[1] وَمَا ورد بِلَفْظ الْجمع فِي حَقه تَعَالَى مرَادا بِهِ التَّعْظِيم ك (نَحن الْوَارِثين) فَهُوَ مَقْصُور على مَحل وُرُوده " [2].

يُفهم من هذا أنّ التعبير بضمير الجمع في حق الله يدلّ على تعظيم الله لذاته العليا كما في قوله تعالى:"(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) [3]" , أمّا في حقّ المخلوق فهو مقيّد بالسياق فإن كان الكلام مع الله فهو لمقاصد متنوعة منها المبالغة في الفعل كما في (نعبد ونستعين) ,

---

١ – مسند الأمام أحمد تح/شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي – مسند الكوفيين

رقم ١٩٤٩١ – مؤسسة الرسالة – الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م

٢ – الكليات لأبي البقاء الكفوي: تح/ عدنان درويش – محمد المصري ص ٣٣٧ – مؤسسة الرسالة – بيروت.

٣ – سورة الأنبياء آية ١٦.

ومنها التعريض كما في قوله تعالى"(ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك)" [١] أي: التعريض على أنهم أولى بالاستخلاف في الأرض , وإن كان الكلام من المخلوق إلى المخلوق فهو أيضا لأغراض كثيرة منها التعظيم كما في (نحن العرب أسخى من بذل) وغير هذا.

وعلى هذا فإنّ المبالغة في تعظيم الله والثناء عليه من الأمور الإنسانيّة المحمودة والمطلوبة تجاه الله – عزّ وجلّ– استفيدت من ضمير الجماعة في (نعبد ونستعين), حيث إنّ استعظام الأمّة للخالق البارئ نابع من إحساس الأمّة بالعِزّة والمنَعَة والغَلَبَة في الجمع والاجتماع على العبادة أي: عبادة الله وحده, قال ابن عاشور:" وَفِي الْعُدُولِ عَنْ ضَمِيرِ الْوَاحِدِ إِلَى الْإِتْيَانِ بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْمُشَارِكِ الدَّلَالَةَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَحَامِدَ صَادِرَةٌ مِنْ جَمَاعَاتٍ، فَفِيهِ إِغَاظَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ إِذْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ صَارُوا فِي عِزَّةٍ وَمَنَعَةٍ وَلِأَنَّهُ أَبْلَغُ فِي الثَّنَاءِ مِنْ أَعْبُدَ وَأَسْتَعِينَ لِئَلَّا تَخْلُوَ الْمُنَاجَاةُ عَنْ ثَنَاءٍ أَيْضًا بِأَنَّ الْمَحْمُودَ الْمَعْبُودَ الْمُسْتَعَانَ قَدْ شَهِدَ لَهُ الْجَمَاعَاتُ وَعَرَفُوا فَضْلَهُ "[٢]

ويُلاحظ هنا أنّ ابن عاشور أشار إلى سرٍّ أو مقصد آخر وراء التعبير بضمير الجمع وهو:

- **إغاظة المشركين في التَّوحُّد والاجتماع على عبادة الله.**

---

١ – سورة البقرة من الآية ٣٠ .

٢ – التحرير والتنوير لابن عاشور ١/ ١٨٦ – الدار التونسية للنشر والطباع – ١٩٨٤م

وأكّده الشعراوي فقال:" على الرغم من أن القياس أن تقول: "«إيّاك أعبد وإيّاك أستعين» لكن قال سبحانه: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} ليوضح لنا أن المؤمنين كلهم وحدة واحدة في العبادة "[1]

وعلى هذا فإنّ الإتيان بضمير الجماعة يعبّر عن المبالغة في تعظيم الخالق وكثرة الثناء عليه من جهة الأمّة , كما أنّ التعبير بضمير الجماعة فيه إغاظة للمشركين إذ علموا أنّ المسلمين صاروا في عزّة وغلبة, وكلّ هذا من المقاصد العالية الصادرة من إحساس الأمّة بالعزّة والقوّة والمنعة في الاجتماع على العبادة, وهذا استشعار طيّب وإخلاص عميق تجاه الله – سبحانه – من الأمّة؛ لأنّ الله– سبحانه وتعالى– هو الذي يعطي ويمنع ويُعِزّ ويُذلّ ويجمع ويُفرّق.

١ – تفسير الشعراوي ٢٠٤١/٤

- **إعلان الذلّ والخضوع والتواضع لله أفراداً وجماعاتٍ** .

وهو غاية إنسانيّة دينيّة عظيمة , ومقصدٌ أهمّ في حقيقة عبادة الله, والإخلاص لله, والتواضع لله, ومَن تواضع لله رفع قدره , وأعلى شأنه, كل هذا كائن في (إيّاك نعبد وإيّاك نستعين) بالجمع, وليس في (إيَّاك أعبد وإيّاك أستعين) بالإفراد

أي: أنني –خالقي وبارئي– فرد من عبيدك وخلقك الذين يقدسونك ويعبدونك ويستعينون بك وحدك في كل شأن , **وقد ألمح الإمام الشوكاني** إلى هذا الأمر فقال:" والمجيء بالنون في الفعلين لقصد الإخبار من الداعي عن نفسه وعن جنسه من العباد وقيل: إن المقام لما كان عظيمًا لم يستقل به الواحد استقصارًا لنفسه واستصغارًا لها فالمجيء بالنون لقصد التواضع لا لتعظيم النفس". [1]

أي: أنّ النون في الفعلين(نعبد ونستعين) بعد أن أخبر بها المسلم عن عبادته لله, وعبادة جميع المؤمنين معه شرقا وغربا, وكذا في الاستعانة, فإنها تدل على تواضع النفس وذلّها وخضوعها لله, وتبرئتها من التكبر؛ لأنّ المقام عظيم لا تستطيع النفس أن تستقلّ به وحدها؛ لصغرها وضَعْفِها, ومما يؤكد دلالتها على تواضع النفس وإعلان براءتها من الكِبْر أنها اقترنت والتصقت بسياق كلمتين تدلّ إحداهما على الذلّ والخضوع والطاعة ألا وهي (العبادة) كما ورد

١ – فتح القدير للشوكاني ٢٧/١ – دار ابن كثير – دمشق – الطبعة الأولى ١٤١٤هـ

فـي المعـاجم العربيـة[١], والأخـرى تـدلّ علـى الحاجـة وطلـب العـون وهـي (الاستعانة)[٢], فاكتسبت منهما دلالة التواضع مع أنّ الأصل في النون – كما هو معروف لغويّا– أن تدلّ على التعظيم ومجيئها للتواضع أمر نادر لم أقف عليه عند اللغويين في حركة بحثي, ولكنه يُصنَّف من مجيء الشيء على خلاف الأصل, وهو وارد في اللغة مثل التصغير يكون للتعظيم وهو خلاف الأصل[٣] بل ضده كما في قول الرسول:".... ثُمَّ فِتْنَةُ الدُّهَيْمَاءِ، لَا تَدَعُ أَحَدًا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا لَطَمَتْهُ لَطْمَةً، فَإِذَا قِيلَ: انْقَضَتْ، تَمَادَتْ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا... " [٤]

وقول الشاعر في عجز بيت:".... دويهية تصفرُّ منها الأنامل"[٥]

والعبادة تشير إلى بذل الجهد والمنّة، والاستعانة تخبر عن استجلاب الطول والمنّة، فبالعبادة يظهر شرف العبد، وبالاستعانة يحصل اللطف للعبد, في العبادة وجود شرفه، وبالاستعانة أمان تلفه. والعبادة ظاهرها تذلل، وحقيقتها تعزّز وتحمّل:"

---

١ – مقاييس اللغة لابن فارس: تح/عبدالسلام هارون {ع ب د } ٢٠٥/٤ – دار الفكر – ١٩٧٩م.

٢ – المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية بالقاهرة { ع و ن } ٦٦١/٢ – الطبعة الثالثة – ٢٠٠٥م

٣ – همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطي تح/ د عبد الحميد هنداوي ٣٧٨/٣ – المكتبة التوفيقية مصر.

٤ – سنن أبي داود: تح/د محمد محي الدين عبدالحميد: حديث رقم ٤٢٤٢ – ٩٤/٤ – المكتبة العصرية بيروت

٥ – البيت من الطويل للبيد بن ربيعة في ديوانه ص ٢٥٦ ,ولسان العرب (خ و خ) ١٤,/٣. والشاهد أنّ تصغير (دُوَيْهيّة) للتعظيم والتهويل).

وإذا تذللت الرقاب تقربا ... منّا إليك، فعزّها في ذلّها "[١].

وفى معناه:

حين أسلمتَني لذال ولام ... ألقيتَني في عين وزاي[٢]

العبادة نزهة القاصدين ، ومستروح المريدين، ومربع الأنس للمحبين، ومرتع البهجة للعارفين. بها قرّة أعينهم، وفيها مسرة قلوبهم، ومنها راحة أرواحهم. وإليه أشار صلّى الله عليه وسلّم بقوله: أرحنا بها يا بلال ..... والاستعانة إجلالك لنعوت كرمه، ونزلك بساحة جوده، وتسليمك إلى يد حكمه، فتقصده بأمل فسيح، وتخطو إليه بخطو وسيع، وتأمل فيه برجاء قوي ، وتثق بكرم أزلي، وتتكل على اختيار سابق، وتعتصم بسبب جوده" [٣]

وعليه فإنّ المعنى في الحالتين(نعبد ونستعين) يستوجب إعلان الذلّ والخضوع والطاعة والتواضع لله – تبارك وتعالى– الخالق البارئ الواجد, وهو مقصد إنساني كبير , وغاية عظمى يجب التحلِّي بها.

---

١ – البيت من الكامل بلا نسبة في تفسير القرطبي ٩/ ٤٢ , والتفسير الوسيط لطنطاوي ٣٢٩/١١, والشاهد في البيت معنوي وهو أنّ ذلّ العبادة مع الله

يرفعك إلى العِزّة مع الله ومع الخلق أجمعين, وكما قيل: مَن تواضع لله رفعه.

٢ – البيت من بحر الخفيف بلا نسبة في لطائف الإشارات للقشيري: تح/إبراهيم البسيوني ٤٩/١ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط٣ – مصر

والشاهد في هذا البيت مثل الذي قبله وهو أنّ ذلّ العبادة مع الله يرفعك إلى العِزّة مع الله ومع الناس أجمعين, وكما قيل: مَن تواضع لله رفعه.

٣ – لطائف الإشارات ٤٩/١

التحوّل الرابع : تكرار (إيّاك) في (وإيّاك نستعين)

التكرار من سنن العرب , وله فائدة عظيمة تتمثل في أنَّ:" التكرير أبلغ من التَّأْكِيد، وَله فَوَائِد مِنْهَا: التَّقْرِير وَقد قيل: الْكَلَام إِذا تكَرر تقرر, وَمِنْهَا زِيَادَة التَّنْبِيه على مَا يَنْفِي التُّهْمَة ليكمل تلقي الْكَلَام بِالْقبُولِ، وَهُوَ مَعَ التَّأْكِيد يجامعه ويفارقه وَيزِيد عَلَيْهِ وَينْقص عَنهُ، فَإِن التَّأْكِيد قد يكون تَكْرَارا وَقد لَا يكون، وَقد يكون التكرير غير تَأْكِيد صناعَة وَإِن كَانَ مُفِيدا للتَّأْكِيد معنى"(١)

فالحاصل أنّ التكرير أقوى من التأكيد؛ لأنّ فيه زيادة التنبيه والتقرير الموجبينِ قَبُولَ الكلام, وكذا فإنّ الأول يشمل الثاني معنى وإن فارقه لفظا.

ومن خلال القراءة المتأنيّة حول هذه الآية تبيّن أنَّ تكرار الضمير المنصوب, له مقصد مهمّ وغاية عظمى تتمثل في

- **التقرير والتأكيد على اختصاص الاستعانة بالله وحده في كلِّ الأحوال .**

وهو مقصد إنساني عظيم, ومطلب محمود؛ لأنّه تقرير وتأكيد من المخلوق إلى الخالق –سبحانه– على أنَّ الاستعانة خالصة له مختصّة به في كلِّ الأمور والأحوال مباشَرةً منك أو عَبْر الأسباب, فهي مثل العبادة الخالصة لك, إذ كان من الممكن أن يقال (إيّاك نعبد ونستعين) وهو صحيح لغويّا ولكن كُرِّر الضمير ليستشعر الإنسانُ بأنه لا حول له ولا قوة له إلا بالله, أي: التأكيد لله سبحانه – وهو مقصد إنساني عظيم – على أنَّ الاستعانة أولًا وآخِرًا تكون بالله ومن الله وإلى الله, وقد أشار الرسول الكريم سيِّدنا محمد

---

١ – الكليات ص ٢٧٠ .

– صلى الله عليه وسلم– إلى هذه الخصوصية وإلى ذلك الاختصاص(الاستعانة بالله) فقال:"...عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ،..."(١)

ويُشير إلى هذا التأكيد ضمنيّا القرطبي فيقول :" وَكَرَّرَ الِاسْمَ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَنَسْتَعِينُ غَيْرَكَ"(٢)

أي أنه للتأكيد على أنّ الاستعانة بالله وحده كيفما كانت أي: سواء كانت مباشرة من عند الله من دون أسباب, أو سبّب لها الأسباب عن طريق خلق الله.

وفي تكرار الضمير أيضًا:

– **الاهتمام بالله, والحرص على الله, والإخلاص لله, والتلذذ بذكره** يقول ابن القيّم :" وَفِي إِعَادَةِ " إِيَّاكَ " مَرَّةً أُخْرَى دَلَالَةٌ عَلَى تَعَلُّقِ هَذِهِ الْأُمُورِ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفِعْلَيْنِ، فَفِي إِعَادَةِ الضَّمِيرِ مِنْ قُوَّةِ الِاقْتِضَاءِ لِذَلِكَ مَا لَيْسَ فِي حَذْفِهِ، فَإِذَا قُلْتَ لِمَلِكٍ مَثَلًا: إِيَّاكَ أُحِبُّ، وَإِيَّاكَ أَخَافُ، كَانَ فِيهِ مِنَ

١ – سن الترمذي :تح/ د إبراهيم عطوة : حديث رقم ٢٥١٦– ٦٦٧/٤ – ط٢ – مصطفى البابي الحلبي ١٩٧٥م

٢ – تفسير القرطبي: تح/ أحمد البردوني وغيره ٤٦/١ – دار الكتب المصرية – ط٢ – ١٩٦٤م

اخْتِصَاصِ الْحُبِّ وَالْخَوْفِ بِذَاتِهِ وَالِاهْتِمَامِ بِذِكْرِهِ، مَا لَيْسَ فِي قَوْلِكِ: إِيَّاكَ أُحِبُّ وَأَخَافُ"(١).

وعليه فإنّ للتحوّلات اللغويّة مقاصد إنسانيّة في الناحية الدينيّة يتمّ استنباطها وتدبرها من المعاني القرآنيّة وإشارات المفسرين وذلك بعد الوقوف على مواضع هذه التحوّلات وإظهارها لاستخراج واستنباط المقاصد الإنسانيّة أي الخاصّة بالإنسان المرتبطة به التي تنبع من قلبه إلى خالقه (سبحانه)أو خلق الله كلهم.

١ – مدارج السالكين ٩٩/١

المبحث الثاني:

المقاصد الإنسانيّة للتحوّلات اللغويّة في الناحية الاجتماعيّة

المقاصد الإنسانيّة لا تنحصر في الناحية الدينيّة فقط بل تتعدّى إلى الناحية الاجتماعيّة, فالمجتمع بحاجة ماسّة إلى تطبيق رُوح الإنسانيّة ليعيش الناس جميعا في أمن وسلام دائمَيْن, وقد أخبر الرسول –صلى الله عليه وسلم– عن هذا الأمان المجتمعيّ الذي يولّد السلام العالَميّ فقال:" مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا"(١)

ومن خلال القراءة المتأنيّة في التحوّلات اللغوية داخل بعض الآيات القرآنيّة وجدت أنّ وراءها مقاصد اجتماعيّة إنسانيّة, من ذلك ما يلي:

- قوله تعالى:"﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾(٢).

فمن الواضح أنّ الأنظمة الاجتماعيّة والمعرفيّة تبرهن أنّ القرية لا تُسأل؛ لأنها جماد , والمراد أهل القرية , وعلى هذا نجد أنّ التحوّل اللغوي وقع هنا على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه وإعطاءه حكمه.

قَالَ سِيبَوَيْهِ:" هَذَا مِمَّا جَاءَ على اتساع الْكَلَام والاختصار، وَإِنَّمَا يُرِيد: أهل الْقرْيَة، فاختصر، وَعمل الْفِعْل فِي الْقرْيَة كَمَا كَانَ عَاملا فِي الْأَهْل لَو كَانَ هَاهُنَا"(٣)

---

١ – سنن الترمذي: حديث رقم ٢٣٤٦– ٤/ ٥٧٤

٢ – سورة يوسف آية ٨٢

٣ – الكتاب ٢١٢/١ .

واعتمده ابْن جني وذكر أنّ فِي هَذَا ثَلَاثة معَان: الاتساع والتشبيه، والتوكيد, فقال:"

أما الاتساع: فَلِأَنَّهُ اسْتعْمل لفظ السُّؤَال مَعَ مَا لَا يَصح فِي الْحَقِيقَة سُؤَاله ...وَأما التَّشْبِيه: فَلِأَنَّهَا شبهت بِمن يَصح سُؤَاله لما كَانَ بهَا ومؤالفا لَهَا... وَأما التوكيد: فَلِأَنَّهُ فِي ظَاهر اللَّفْظ إِحَالَة بالسؤال على من لَيْسَ مِن عَادَته الْإِجَابَة، فكأنهم تضمنوا لأبيهم عَلَيْهِ السَّلَام أَنه إِن سَأَلَ الجمادات وَالْجمال أنبأته بِصِحَّة قَوْلهم..." (١)

وعليه فإنّ هذا التحوّل الذي تمثّل هنا في إطلاق السؤال على الجماد (القرية) له مقاصد اجتماعيّة عظيمة منها:

- **استعمال البرهان للتأكيد على الصدق في الكلام.**

التأكيد على الصدق في الكلام من أجل التبرئة من الكذب , وإعطاء البرهان على ذلك من المقاصد الإنسانيّة المحمودة والمطلوبة داخل المجتمعات لإزالة الشك والريب وتحقيق السلام؛ حيث إنّ ما فعله إخوة يوسف مع أبيهم من قبل يوجب الشك والريبة؛ فلذلك صدّروا له هذه الجملة وجعلوا شاهدهم ومصدِّقهم المكان الذي وقع فيه الحدث الجلل والضجّة الكبرى أي : اسأل القرية وما فيها من بيوت وأحجار وجبال وزرع وغير ذلك , وليس ببعيد عن سيدنا يعقوب – عليه السلام– أن يطلب من الله تسخير الجماد فيسأله.

١ – الخصائص لابن جني ٤٤٩/٢ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الرابعة.

قال الشوكاني:"قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى مِصْرَ نَزَلُوا فِيهَا وَامْتَارُوا مِنْهَا وَقِيلَ: الْمَعْنَى: وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ

نَفْسَهَا وَإِنْ كَانَتْ جَمَادًا فَإِنَّكَ نَبِيُّ اللَّهِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ سَيُنْطِقُهَا فَتُجِيبُكَ..."(١).

وجاء في تفسير الشعراوي :" وبطبيعة الحال لن يسأل إنسان المكان أو المباني، بل يسأل أهل القرية، ولم يقل الحق: اسأل أهل القرية؛ لأن المسئول عنه هو أمر بلغ من الصدق أن المكان يشهد مع المكين" (٢).

وزاد الإمام الشعراوي الأمر توضيحًا فقال ": يا أبانا إنْ كنتَ تشك في أقوالنا؛ يمكنك أن تطلب أدلة أخرى من المكان الذي كنا فيه؛ لأن هذا الموضوع قد أحدث ضجَّة وحدث أمام جمع كبير من الناس، والقوافل التي كانت معنا شهدتْ الواقعة؛ فقد أذَّن مُؤذِّن بالحادث، وتَمَّ تفتيش العِير علناً

فإذا أردتَ أن تتأكد من صدق أقوالنا، فاسأل العِير التي كانت تسير معنا في الطريق، وهم يعرفون هذه القضية كما نعرفها، أو اسأل أهل القرية التي جئنا منها, ونحن نعلم أن كل حَدَثٍ من الأحداث لا بُدَّ له من فاعل، ومن مفعول يقع عليه، ومن مكان يقع فيه، ومن زمان يقع فيه؛ ومن سبب يُوجِبه، ومن قوة تنهض به.وفي بعض الحالات نجد أن المكان هو الأمر الظاهر والقوي في الحدث، فننسبه إليه، فيُقال)وَسْئَلِ القرية)

١ – فتح القدير ٣/ ٥٦

٢ – تفسير الشعراوي ٧/٤٠٤٤

والمراد بطبيعة الحال أن يَسأل أهل القرية، أو: أن المسألة كانت واضحة تماماً لدرجة أن الجماد يعرف تفاصيلها، أو: أنك نبيٌّ ويوحي لك الله فَسَلْهُ أن يجعل الأرض تخبرك بما وقع عليها"[1].

وعليه فإنّ إطلاق السؤال على القرية له غاية إنسانيّة عظمى ينبغي التحلّي بها وسط المجتمعات ألا وهي إقامة الأدلة والبراهين على الصدق في الكلام؛ لإزالة الشكّ والخيانة وتحقيق الأمن والسلام بين الناس.

- **قوله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾**[2]

من خلال القراءة المتأنية في التفاسير حول هذه الآية وجدت أنّ فيها أمورًا لغويّة متنوعة لأغراض إنسانيّة متعددة, منها ما يلي:

أولا: اجتماع جملة التنبيه (يا أيها الناس) وجملة التأكيد (إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى).

المتأمِّل يرى أنّ هذا التحوّل المتمثّل في الجمع بين هاتين الجملتين – وهما من جنس واحد حيث إنهما يشتركان في غرض (الاهتمام بالشأن أو الأمر) , وكان من الممكن في غير القرآن الاكتفاء بإحداهما أو حذفهما والتركيب صحيح – وراءه إشارات كريمة وغايات كبيرة تتمثل في التنبيه والتأكيد على مقاصد محمودة وأغراض مطلوبة من الإنسان تجاه أخيه الإنسان؛ ليعيش الناس وتحيا المجتمعات في أمن وسلام, منها:

---

١ – السابق ٧٠٤١/١١

٢ – سورة الحجرات آية ١٣

– عدم التفاخر وعدم التكبُّر؛ لأنّ الناس سواسية في الخلق, وكلُّهم من أب واحد وأمّ واحدة.

فمن الملاحظ أنّ التفاخر والتكبُّر أمران سيّئان يولِّدان الكُرْهَ والمشاحناتِ والحِقدَ بين الناس والمجتمعات, فجاء استخدام جملة النداء, وجملة التأكيد ؛ لإعطاء وشرح الحقيقة الأولى في خلق الناس, وللتنبيه على غاية إنسانيّة كبرى, والتأكيد على مقصد مطلوب داخل المجتمعات البشريّة, وهو عدم التفاخر وعدم التكبر والاعتراف بأنّ جميع الناس متساوون في الخلق فلا يفخر بعضكم على بعض في شيء من الخِلقة, ولا يتكبَّر , فأنتم من نفس واحدة, وهي نفس آدم, وآدم من تراب , وقد قال الإمام عليّ - رضي الله عنه- معبِّرا عن هذا المعنى

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّمْثِيلِ أكفَاءُ ... أبُوهُمُ آدَمُ وَالْأُمُّ حَوَّاءُ

نَفْسٌ كَنَفْسٍ وَأَرْوَاحٌ مُشَاكَلَةٌ ... وَأَعْظُمٌ خُلِقَتْ فِيهِمْ وَأَعْضَاءُ

فَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ مِنْ أَصْلِهِمْ حَسَبٌ ... يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطِّينُ وَالْمَاءُ[1][2]

وعلى هذا فإنّ الإتيان بجملتي النداء والتأكيد, والجمع بينهما للتنبيه والتأكيد على هذا المقصد الإنساني الكبير وهو عدم التفاخر وعدم التكبر؛ لأنّ البشر كلهم من ذكر واحد وأنثى واحدة , وأنّ الناس سواسية, وكان من الممكن أن يقال في غير القرآن(يا أيُّها الناس خلقناكم من ذكر وأنثى)

---

١ – من بحر البسيط :ديوان الإمام علي :تعليق د/أحمد أحمد شتيويّ– ص ٢٥– قافية الهمزة– دار الغد الجديدة – المنصورة – ط١ – ٢٠١٣م

٢ – الجامع لأحكام القرآن=تفسير القرطبي ١٦/ ٣٤٢ بفهم وتصرف

بحذف أسلوب التأكيد, أو أن يقال(إنا خلقنا الناس من ذكر وأنثى) بحذف أسلوب النداء, والتركيب صحيح في كلٍّ إلا أنّ الجمع بينهما لهذا الغرض.

ثانيا: اعتراض جملة (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) بين جملتي(إنّا خلقناكم ,وإنّ أكرمكم).

الاعتراض كثير في لغة العرب جاء في القرآن والشعر والنثر وهو" جار عندهم مجرى التوكيد"[١] و"النكتة فِيهِ إِفَادَة التقوية أَو التَّشْدِيد أَو التحسين أَو التَّنْبِيه أَو الاهتمام أَو التَّنْزِيه أَو الدُّعَاء أَو الْمُطَابقَة أَو الاستعطاف أَو بَيَان السَّبَب لأمر فِيهِ غرابة أَو غير ذَلِك...واللطيف مِنْهُ هُوَ الَّذِي يُفِيد الْمَعْنى جمالا ويكسو اللَّفْظ كمالا وَيزِيد بِهِ النّظم فصاحة وَالْكَلَام بلاغة"[٢]

وعليه فإنّ الإتيان بهذه الجملة المعترضة بين الجملتين المتلازمتين[٣] في المعنى(إنّا خلقناكم , وإنّ أكرمكم) للإشارة إلى غاية عظمى وأهمية كبرى تستقيم بها الحياة داخل المجتمعات منها:

– بثّ التعارف والتآلف والمؤاخاة بين الناس؛ لتحقيق المودة والنفع داخل المجتمعات.

---

١ – الخصائص ١/ ٣٣٦ .

٢ – الكليات ص١٤٥. .

٣ – الجملة الأولى بيان أصل أنّ الناس متساوون في الخلق؛ لأنهم كلهم من ذكر واحد وأنثى واحدة فلا تفاضلوا, أما الجملة الثانية فأصدرت حكما شرعيّا نهائيا لهذا التفاضل وبيّنت أنّ الأساس المشروع في التفاضل هو تقوى الله فقط, وأيضا فقد قال الرسول – صلى الله عليه وسلم– لا فضل لعربي على عجميّ إلا بالتقوى. مسند الإمام أحمد : حديث رقم ٢٣٤٨٩

فالمتأمِّل يرى أنّ جملة(وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ) معترضة بين الجملتين[١] (إنّا خلقناكم , وإنّ أكرمكم) للإشارة إلى واجب آخر مهمّ ينبغي على الإنسان إتيانه والحرص عليه والاهتمام به ألا وهو نشر التعارف والمؤاخاة بين الناس لتحقيق المودّة والمحبّة والنفع بين الخلق أجمعين, واجتناب السُّخْرِيَة وَاللَّمْز وَالنَّبْز وَالظَّنّ وَالتَّجَسُّس وَالِاغْتِيَاب الذي كثر بين الناس والمجتمعات[٢] فلهذا جيء بالاعتراض لهذه النّكتة , ونكات الاعتراض كثيرة كما سبق.

ثالثا: الاستئناف في الكلام بعد الاعتراض.

كذا تجد أنّ وراء هذا الاستئناف المتمثل في جملة(إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم) بعد الاعتراض بجملة (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) سرّا كبيرًا وأمرًا عظيمًا ومقصدًا إنسانِيًّا يجب على الإنسان التمسك به ألا وهو

- تطبيق الحكم الإلهي بين الناس (التقوى أساس التفاوت بين البشر).

لا شك أنّ هذا مقصد عظيم مطلوب من الإنسان تطبيقه وتنفيذه في الأرض لتحقيق العدالة بين المجتمعات والناس جميعا طاعة لله ورسوله, حيث إنّ استئناف جملة (إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم) المبدوءة بالتأكيد؛ لإعطاء الحكم القاطع في الحقيقة الأولى – وهي التساوي بين الناس في أصل الخِلقة – المستفادة من الجملة الأولى(إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى), فكانت جملة(إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم) نتيجة وحكما نهائيا للجملة الأولى, وما سيُحدثه الناس بعد الخلق من التفاخر والتفاضل والتكبُّر, حيث أبطلت هذه الجملة ما أحدثه الناس وبيَّنت أنّ المفاضلة المشروعة بين البشر , والتي يجب تنفيذها هي تقوى الله فقط[٣]

---

١ – التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٦١/٢٦

٢ – التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٦١/٢٦ بتصرف

٣ – السابق ٢٦١/٢٦, ٢٦٢ بتصرف

المبحث الثالث : المقاصد الإنسانيّة للتحوّلات اللغويّة في الناحية الاقتصادية

حينما خلقنا الله – تبارك وتعالى– تكفّل الله بحاجاتنا وأرزاقنا ومصالح أبداننا وسبّب لها أسبابا للحصول عليها فأمرنا بالسعي إليها والعمل الدائم من أجل استمرارها لنعيش حياة طيّبة خالية من العالة والفقر.

وبنظرة تأمل وقراءة متأنيّة حول تفسير بعض الآيات القرآنيّة التي وقع فيها تغيير أو تحوّل داخل الجملة وجدت أنّ هناك مقاصد إنسانيّة لهذه التغييرات في الجانب الاقتصادي من هذا ما يلي:

قوله تعالى﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ (١)

المتأمِّل في الآية الكريمة يجد أنها احتوت على تحوّلات متنوعة, أهمها ما يلي:

أولا: التحوّل في التعبير من كلمة إلى كلمة أخرى

في الآية مجاز مرسل علاقته المُسَببيّة حيث عدل عن ذكر السبب وهو المطر وذكر المسبَّب وهو الرزق, ووراء هذا التحول مقصد مطلوب وغاية إنسانيّة محمودة ألا وهي:

٣- تقديم الشُّكر لله على التكفُّل بالرزق ورعاية مصالح الأبدان وحياة الأرواح

الشكر على التَّكَفُّل بالرزق وضمان ورعاية مصالح الأنفس من الغايات الإنسانيّة المحمودة والمقاصد المطلوبة ؛ لنزداد رزقا وإيمانا ونفعا, كما قال

---

١ – سورة غافر آية ١٣

الله تعالى﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[1] ونعم الله كثيرة لا تحصى ولا تعدّ أبرزها هنا الرزق الذي ينزل من السماء ويتمثل في صور كثيرة منها الحبوب والغلال والثمار وغيرها التي كانت سببا في قِوام الأبدان وتحقيق مصالح الأنفس وازدهار حياتها وانتعاشها اقتصاديّا بطريق البيع والشراء كما قال الله ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾[2]

وقد أشار الرازي إلى هذا فقال: "وَاعْلَمْ أَنَّ أَهَمَّ الْمُهِمَّاتِ رِعَايَةُ مَصَالِحِ الْأَدْيَانِ، وَمَصَالِحِ الْأَبْدَانِ، فَهُوَ سُبْحَانُهُ وَتَعَالَى رَاعَى مَصَالِحَ أَدْيَانِ الْعِبَادِ بِإِظْهَارِ الْبَيِّنَاتِ وَالْآيَاتِ، وَرَاعَى مَصَالِحَ أَبْدَانِهِمْ بِإِنْزَالِ الرِّزْقِ مِنَ السَّمَاءِ، فَمَوْقِعُ الْآيَاتِ مِنَ الْأَدْيَانِ كَمَوْقِعِ الْأَرْزَاقِ مِنَ الْأَبْدَانِ، فَالْآيَاتُ لِحَيَاةِ الْأَدْيَانِ، وَالْأَرْزَاقُ لِحَيَاةِ الْأَبْدَانِ، وَعِنْدَ حُصُولِهِمَا يَحْصُلُ الْإِنْعَامُ عَلَى أَقْوَى الِاعْتِبَارَاتِ وَأَكْمَلِ الْجِهَاتِ"[3]

وقال الشنقيطي :" وَبَيَّنَ فِي آيَاتٍ أُخَرَ أَنَّ الرِّزْقَ الْمَذْكُورَ شَامِلٌ لِمَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ، وَمَا تَأْكُلُهُ الْأَنْعَامُ ; لِأَنَّ مَا تَأْكُلُهُ الْأَنْعَامُ، يَحْصُلُ بِسَبَبِهِ لِلنَّاسِ الِانْتِفَاعُ بِلُحُومِهَا، وَجُلُودِهَا وَأَلْبَانِهَا، وَأَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا " [4]

ويوضح الشيخ الشعراوي فيقول :"فكأن الحق سبحانه وتعالى وضع في الأرض وسائل استبقاء الحياة, فلم يترك الإنسان على الأرض دون أن يوفر له وسائل استمرار حياته, فالمطر ينزل من السماء، والسماء هي كل ما علاك فأظلك فينبت به الزرع والثمر، وهذا رزق لنا،... والرزق في نظر

---

١ – سورة إبراهيم من الآية ٧

٢ – سورة البقرة من الآية ٢٧٥

٣ – مفاتيح الغيب للرازي ٤٩٧/٢٧ – الطبعة الثالثة– دار إحياء التراث العربي بيروت – ١٤٢٠هـ

٤ – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٣٧٨/٦ – دار الفكر للطباعة – لبنان– ١٩٩٥م.

معظم الناس هو المال... ولكن هناك رزق الصحة. ورزق الولد. ورزق الطعام. ورزق في البركة. وكل نعمة من الله سبحانه وتعالى هي رزق وليس المال وحده, فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا بهذه الآية الكريمة إلى أن نفكر قليلاً، فيمن خلق هذا الكون لنعرف أنه قبل أن يخلق الإنسان خلق له عناصر بقائه. ولكن هذا الإعداد لم يتوقف عند الحياة المادية. بل إن الله كما أعدّ لنا مقومات حياتنا المادية أعدّ لنا مقومات حياتنا الروحية، أو القيّم في الوجود"[١]

فالعدول في التعبير عن ذكر (المطر) إلى ذكر (الرزق) من أجل لَفْت الانتباه إلى الغاية الإنسانيّة المطلوبة وهي الشكر على هذه النعم التي لا تُحصى ولا تعدّ؛ لأنّ الرزق شامل لكل ما يأكله الناس وما يتمتعون به من صحة وراحة وعلم وبركة ومال وغيره, فالرزق نعمة مُعَدّة يحصل عليها الإنسان ويستعملها كيفما شاء ومتى شاء فهو أمر متحقق ومباشر؛ ولهذا فقد أورد الله الشكر مقترنا بالرزق فقال تعالى (كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) [٢]. وقال تعالى (كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون) [٣].. والنِّعَم تُقَيّد بالشكر وتزيد كما قال الله (لئن شكرتم لأزيدنَّكم) [٤].. وعدم الشكر كان سببا في تدمير مملكة سبأ كما حكى الله عنها؛ لأن الله أعطاهم نِعَمَا كثيرة, وأمرهم بطاعته وشكره, ونهاهم عن معصيته على لسان رسله, فكذبوا الرسل وأعرضوا, فكانت عاقبتهم كما ذكرت الآيات القرآ نية.

ثانيا: تقديم الضمير المجرور(لكم) على مفعول (يُنزِّل).

---

١ – تفسير الشعراوي ١٨٨/١.

٢ – سورة سبأ من الآية ١٥

٣ – سورة البقرة من الآية ١٧٢

٤ – سورة إبراهيم من الآية ٧

المتأمل يرى أن في هذا التحول استشعارا عظيما, ومقصدا مطلوبا من الإنسان تجاه الخالق – تبارك وتعالى– ألا وهو

- **تذكُّر اهتمام الله بالعباد وإكرامه لهم في أنّ تنزيل الرزق من أجلهم.**

من المعروف لغويا أنّ يتقدّم المفعول على متعلّقات الفعل, فإن تقدم المتعلّق على المفعول فهذا للاهتمام به [١]. كما في الآية الكريمة حيث قدّم الجار والمجرور(لكم) على (رزقا) مفعول (ينزّل).

قال ابن عاشور: " وَتَقْدِيمُ لَكُمْ عَلَى مَفْعُولِ يُنَزِّلُ وَهُوَ رِزْقاً لِكَمَالِ الِامْتِنَانِ بِأَنْ جُعِلَ تَنْزِيلُ الرِّزْقِ لِأَجْلِ النَّاسِ وَلَوْ أُخِّرَ الْمَجْرُورُ لَصَارَ صِفَةً لِرِزْقاً فَلَا يُفِيدُ أَنَّ التَّنْزِيلَ لِأَجْلِ الْمُخَاطَبِينَ بَلْ يُفِيدُ أَنَّ الرِّزْقَ صَالِحٌ لِلْمُخَاطَبِينَ وَبَيْنَ الْمَعْنَيَيْنِ بَوْنٌ بَعِيدٌ، فَكَانَ تَقْدِيمُ الْمَجْرُورِ فِي التَّرْتِيبِ عَلَى مَفْعُولِ الْفِعْلِ عَلَى خِلَافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ لِأَنَّ حَقَّ الْمَفْعُولِ أَنْ يَتَقَدَّمَ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ مُتَعَلَّقَاتِ الْفِعْلِ وَإِنَّمَا خُولِفَ الظَّاهِرُ لِهَذِهِ النُّكْتَةِ"[٢].

وزاد هذا الأمر توضيحا فقال: "وَجُعِلَ تَنْزِيلُ الرِّزْقِ لِأَجْلِ الْمُخَاطَبِينَ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ كَرَامَتَهُمُ ابْتِدَاءً وَأَنَّ انْتِفَاعَ غَيْرِهِمْ بِالرِّزْقِ انْتِفَاعٌ بِالتَّبَعِ لَهُمْ لِأَنَّهُمُ الَّذِينَ بِمَحَلِّ الرِّضَى مِنَ اللَّهِ تَعَالَى"[٣]

فابن عاشور – رحمه الله– يشير إلى أنّ هذا التقديم[٤] لِلَفْتِ الانتباه إلى الاهتمام والتكريم من الله للعباد بأن جعل تنزيل الرزق من أجلهم إعلاء

---

١ – حيث إنّ المتعلق(لكم) شبه جملة, لو أُخِّر لأعرب في محل نصب صفة لـ(رزقا), مثله مثل الجمل بعد النكرات صفات وبعد المعارف أحوال, وبهذا التأخير لا يفيد أن تنزيل الرزق من أجلهم بل يفيد أن الرزق صالح للمخاطبين.

٢ – التحرير والتنوير ١٠٣/٢٤

٣ – السابق ١٠٤/٢٤

٤ – أي: تقديم الضمير على المفعول.

لأمرهم, وتكريما لشأنهم, وقد قال الله – تبارك وتعالى–﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[1] , واللفْتُ إلى اهتمام الله بالعباد ينبئ عن مقصد عظيم مطلوب ألا وهو استحضار هذا الاهتمام وتذكره دائما؛ لأنّنا حينما نستحضر اهتمام الله بنا فإنّ هذا يقوي في العباد صفة التوكل على الله خاصة في الأرزاق, والرضا بما قسمه الله وبما اختاره الله لنا, وقد أشار الرسول – صلى الله عليه وسلم– إلى هذا الاهتمام فقال:" (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير) [2] فهذا التعجب من الرسول ووصفه لأمر المؤمن بالخيرية في كل الأحوال يؤكد اهتمام الله بعباده, ولكن يبقى علينا ضبط هذا الاعتقاد, واستحضار هذا الاهتمام.

ثالثا: اختيار المضارع المضعّف العين (يُنَزِّلُ) بدلًا من الماضي[3].

من الملاحظ أنّ مجيء الفعل مضارعا مشدّد العين له دلالة عظمى وغاية إنسانيّة مطلوبة تجاه الخالق– سبحانه وتعالى– تتمثل في

التوكل الدائم على الله في ضمان الرزق ودوامه منه – تبارك وتعالى– دواما متجددا يبعث الطمأنينة والأمان.

قال ابن عاشور:"وَصِيغَةُ الْمُضَارِعِ فِي يُرِيكُمْ ويُنَزِّلُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ إِرَاءَةٌ مُتَجَدِّدَةٌ وَتَنْزِيلٌ مُتَجَدِّدٌ وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْخِطَابَ

---

١ – الإسراء آية ٧٠

٢ – صحيح مسلم – كتاب الزهد – باب أمر المؤمن كله خير– رقم ٢٩٩٩ – ٢٢٩٥/٤

٣ – لأنه يصح العدول عن المضارع إلى الماضي أو العكس كما في قوله ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾ سورةالبقرة.

مُسْتَأْنَفٌ مُرَادٌ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ وَلَيْسَ مِنْ بَقِيَّةِ خِطَابِ الْمُشْرِكِينَ فِي جَهَنَّمَ، وَيَزِيدُ ذَلِكَ تَأْيِيدًا قَوْلُهُ: فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ"(١)

وذكر الألوسي:" **وصيغة المضارع في الفعلين للدلالة على تجدد الإراءة والتنزيل واستمرارهما**"(٢).

فالإتيان بالمضارع بدلًا من الماضي لقصد الاستمرار؛ إذ الاستمرار إنما يكون في المستقبل كما حكى ابن هشام في المغني(٣), وقال صاحب جواهر البلاغة :"وقد تفيد الجملة الفعلية الاستمرار التجدّدي شيئاً فشيئاً بحسب المقام، وبمعونة القرائن، لا بحسب الوضع بشرط أن يكونَ الفعلُ مضارعاً"(٤)

واستمرار اليقين والتوكّل على الله في كلِّ الأمور خاصة في التجارة والأرزاق يبعث الحفظ والرعاية من الله لهذه التجارة, ولجميع المصالح والأرزاق, ويحقق الطمأنينة للقلوب , فهو أمر مطلوب , وغاية محمودة.

كما أنّ الألفاظ أدلة المعاني, فتكرير العين في المثال(يُنزِّل) دليل على تكرير الفعل؛ لقوّة المعنى المحدّث به"(٥), وهذا "التكرير للتكثير" كما حكى سيبويه(٦), والتكثير يتناسب مع اليقين بالله؛ لأنّ اليقين يحتاج إلى الزيادة

---

١ – التحرير والتنوير ١٠٣/٢٤

٢ – روح المعاني ٣٠٧/١٢

٣ – مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام: تح/ د مازن المبارك وغيره ١٨٥/١– دار الفكر دمشق – ط٦ – ١٩٨٥م.

٤ – جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع تأليف/أحمد بن إبراهيم الهاشمي,ضبط د/ يوسف الصميلي ص ٦٦– المكتبة العصرية بيروت.

٥ – الخصائص لابن جني تح/ محمد علي النجار ١٥٥/٢ – طبعة المكتبة العلمية.

٦ – الكتاب لسيبويه تح/ عبدالسلام محمد هارون ٦٤/٤ – مكتبة الخانجي القاهرة – ط٣ – ١٩٨٨م

والتزود من الإيمان, والاستمرار في الثبات كي ننال رضا الله في الدنيا والآخرة, ونصل إلى المقاصد العالية .

- قوله تعالى﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1]

أما هنا فنجد أنّ الجمع بين ثلاث صيغ من فعل الأمر , واختلافها؛ للدلالة والتنبيه على غاية كبرى محمودة, وأهمية عظمى مطلوبة من الإنسان تتمثل في:

التوازن بين أعمال الدنيا والآخرة, ومعناه أنه يجمع بين أداء العبادات والطاعات بمحافظة وإتقان, وبين الحرص على العمل بجِدٍّ وكفاح, ويوازن بينهما بلا تضييع لأحدهما.

حيث إنّ الأفعال الثلاثة تشير إلى الكسب والتجارة والربح والنفع في جميع الأعمال دنيوية وأُخرويّة؛ فلهذا تعددت الأوامر واختلفت للإشارة إلى تحقيق التوازن بين التجارتين تجارة الدنيا وتجارة الآخرة وهذا التوازن غاية محمودة , ومقصد مطلوب من الإنسان

فالفعل (انتشروا) الأمر فيه للإباحة[2] وهو يشير إلى التفرّق في الأرض – بعد أداء الصلاة والذكر والطاعات– والسعي بين الناس في جميع الأماكن, وعدم التكدُّس في مكان واحد؛ لإيصال النفع إلى الخلق أجمعين بطريق البيع والشراء في كلّ أنواع الأعمال التجارية الطيّبة لكسب الربح الحلال الطيّب.

---

١ – سورة الجمعة أية ١٠

٢ – لباب التأويل في معاني التنزيل لأبي الحسن الخازن: تصحيح/محمد علي شاهين ٢٩٤/٤ –دار الكتب العلمية – بيروت– ط١، ١٤١٥ هـ

والفعل (وابتغوا من فضل الله) إباحة أيضا[1], ويشير إلى الاجتهاد في الطلب والسعي في أسباب الرزق, وأنّ الرزق الذي ستحصل عليه هو من فضل الله عليكم وعلى الناس جميعا.

والفعل (واذكروا الله كثيرا) احتراس من الانشغال بطلب الرزق انشغالا يؤدي إلى التقصير في أداء الصلاة والطاعات, ويشير أيضا إلى التزود من ذكر الله وقت انتشاركم في الأرض وطلبكم للرزق؛ لأنّ التزود من ذكر الله ومن الطاعات هو التجارة الباقية وما عداها تجارة فانية, وأنّ الفلاح في الإقبال على مرضاة الله. [2]

١ – السابق ٢٩٤/٤ .

٢ – التحرير والتنوير ٢٢٧/٢٨ , وتفسير الشعراوي ٤٥٥٣/٨, ١٧/ ١٠٢٧٩ بتصرف.

المبحث الرابع:

المقاصد الإنسانيّة للتحوّلات اللغوية في الناحية الثقافيّة

خلق الله الإنسان وفَضَّله على سائر خلقه تفضيلا بأن منحه البيان , وفتح له طريق العلم والحكمة؛ ليتأمّل ويكشف بنفسه عن الأسرار الكونية وجميع المنح الإلهية في كافّة مجالات الحياة, ومن هذه المجالات المجالات العلمية خاصّة اللغويّة المرتبطة بالقرآن الكريم ووجوه إعجازه وإفصاحه, من ذلك:

- قوله تعالى:﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾[1]

من خلال القراءة في تفسير هاتين الآيتين تبيّن أنّه يوجد بعض التحوّلات اللغوية التي وراءها مقاصد محمودة, وأغراض مطلوبة, لعلّ أهمها ما يلي:

١- استعمال الاستفهام المنفيّ بدلا من الخبر المثبت.

المتأمل يرى أنّ المجيء بالاستفهام منفيّا قبل الآيات الكونيّة للإشارة إلى المقصد الأول المطلوب من الإنسان تجاه الله – سبحانه وتعالى– ألا وهو

- إعمال النظر والعقل في الأرض المُمَهّدة للحياة والممات؛ للإقرار والاعتراف بقدرة الله – تبارك وتعالى – على بصيرة وإدراك.

حيث إنّ الاستفهام عن الحقائق الكونيّة الموجودة يستلزم قبل الإجابة عليها النظر والتعقل فيها حتى تكون إجابته على اقتناع تام وإدراك وبصيرة ؛لأنّ إجابته هي تقرير منه أعمل فيه نظره وعقله ليصل بذلك إلى الاعتراف بوحدانيّة الله وقدرته الكاملة على إيجاد هذا التكوين العجيب؛ ولهذا أورد الله

---

١ – سورة النبأ آية ٦ , ٧.

– تبارك وتعالى – الاستفهام منفيّا؛ ليحمل عبده إلى النظر والتفكر – في عجائب الله ومخلوقاته العظيمة [1] – الموجبين الإقرار والاعتراف بوحدانية الله, وهو مقصد محمود وغرض مطلوب من الإنسان تجاه الخالق – عزّ وجلّ– مصداقا لقوله تعالى:" ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾

فقد وضّح الله – تبارك وتعالى– هنا وأشار إلى المقصد المطلوب, وذكره صراحة فقال(أفلا ينظرون) حيث إنّ إعمال النظر والعقل في مخلوقات الله هو المقصد الأول قبل الإقرار والاعتراف بوحدانيّة الله حتّى يكون الإيمان بالله خالصا لا إكراه فيه ولا إجبار.

١ – مفاتيح الغيب ٣١/ ٦, ٨ والتحرير والتنوير ٣٠ /١٦, ١٧ بتصرف.

٢- التحول في التعبير من كلمة إلى كلمة أخرى.

أيضا تجد أنّ استعمال الفعل (جعل) – وهو يفيد التصيير والتحويل–[١] بدلا من الفعل(خلق) – وهو يفيد التقدير والإيجاد–[٢] فيه مقصد محمود وغرض مطلوب ألا وهو

- **توجيه العقل إلى التأمّل العلمي في أحوال الأرض وأقسامها.**

من الملاحظ أنّه بعد الإشارة إلى المقصد الأول وهو إعمال النظر والرؤية البصرية والعقليّة للأرض المُمَهّدة والمُعَدّة للحياة والممات, انتقل إلى المقصد الثاني, وهو التأمّل العلمي, وتوجيه العقل إلى البحث والتنقيب في مكونات هذا المخلوق العجيب وأحواله التي يمرّ بها؛ لنصل بذلك إلى الحقائق العلميّة لهذا المخلوق وغيره فنزداد إيمانا, وعلما, ونفعا بالهداية والبحث والإدراك, وهذا المقصد استفيد من استعمال الفعل (جعل) لأن هذا الفعل يفيد "توجيه مخلوق لله إلى مهمته في الحياة, وتحويل شيء إلى شيء"[٣]

فالله بعد أن خلق الأرض بأحوالها وطبقاتها صيّر ووجّه كل حالة أو طبقة إلى وظيفتها ومهمّتها, فكانت حالةُ من حالاتها أو طبقة من طبقاتها بساطا ميسّرا للإنسان والحيوان وغيرهما, وحينما كشف الله – تبارك وتعالى– عن

---

١ – لسان العرب: (ج ع ل) ١١٠/١١ , ١١١ – دار صادر بيروت – ط٣ – ١٤١٤هـ.

٢ – السابق (خ ل ق) ١٠ / ٨٥

٣ – تفسير الشعراوي ٦/ ٣٤٢٥ , ١١٣٠٩/١٨

سرٍّ من هذا الإعجاز فإنّ في هذا الكشف إيقاظا لأفكارنا [١], وتوجيها لعقولنا بالبحث العلمي والتأمل الذهني حول هذه الأرض وأحوالها؛ للوصول إلى الاكتشافات البديعة, والأسرار العظيمة لهذا المخلوق العجيب.

وقد أخبر ابن عاشور عن هذا الفرق فقال:" وَالتَّعْبِيرُ بِ نَجْعَلِ دُونَ: نَخْلُقُ، لِأَنَّ كَوْنَهَا مِهَادًا حَالَةٌ مِنْ أَحْوَالِهَا عِنْدَ خَلْقِهَا أَوْ بَعْدَهُ بِخِلَافِ فِعْلِ الْخَلْقِ فَإِنَّهُ يَتَعَدَّى إِلَى الذَّاتِ غَالِبًا أَوْ إِلَى الْوَصْفِ الْمُقَوِّمِ لِلذَّاتِ نَحْوَ: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ , والمِهاد بكسر الميم : الفراش المبسوط لسان العرب, فهو تشبيه للأرض بأنها ميسّرة للجلوس والنوم والمشي وغيره, فالحاصل أنّ الأرض ملائمة للمخلوقات التي عليها , وفي هذا برهان قاطع على إبداع الخلق والتيسير على الناس"[٢] .

فالفعل(جعل) يأتي بعد الخلق في الأغلب, وهو فرع منه, ويكون في شيء موجود, ويأتي لبيان هيئة الشيء ووظيفته [٣], وهذا بعكس الفعل(خلق) الذي يعني الإيجاد من عدم, أو تقدير الشيء الموجود وغير الموجود, فالفعل(خلق) يقتضي الكليّة, والفعل (جعل) يقتضي الجزئية؛ ولهذا تحِلّ (خلق) محلّ (جعل) نحو (وخُلِقَ الإنسان عجولا) أي أنّه جُعِل كذلك , وَ" الْعَجَلُ : السُّرْعَةُ. وَخَلْقُ الْإِنْسَان مِنْهُ اسْتِعَارَةٌ لِتَمَكُّنِ هَذَا الْوَصْفِ مِنْ جِبِلَّةِ

---

١ – موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة د/ محمد راتب النابلسي ٢/ ٥٤ – ٥٦: دار المكتبي – سورية – دمشق – الحلبوني – جادة ابن سينا.
الطبعة: الثانية ١٤٢٦– ٢٠٠٥م بتصرف

٢ – التحرير والتنوير ١٤/٣٠

٣ – شبكة الفصيح لعلوم اللغة العربية – منتدى النحو والصرف (خلق – فطر جعل) الفرق بينها في القرآن الكريم د / محمد الجبالي, بتصرف وزيادة.

الْإِنْسَانِيَّةِ. شُبِّهَتْ شِدَّةُ مُلَازَمَة الْوَصْف بِكَوْنِهِ مَادَّة لتكوين مَوْصُوفه، لِأَنَّ ضَعْفَ صِفَةِ الصَّبْرِ فِي الْإِنْسَانِ مِنْ مُقْتَضَى التَّفْكِيرِ فِي الْمَحَبَّةِ وَالْكَرَاهِيَةِ. فَإِذَا فَكَّرَ الْعَقْلُ فِي شَيْءٍ مَحْبُوبٍ اسْتَعْجَلَ حُصُولَهُ بِدَاعِي الْمَحَبَّةِ، وَإِذَا فَكَّرَ فِي شَيْءٍ مَكْرُوهٍ اسْتَعْجَلَ إِزَالَتَهُ بِدَاعِي الْكَرَاهِيَةِ، وَلَا تَخْلُو أَحْوَالُ الْإِنْسَانِ عَنْ هَذَيْنِ، فَلَا جَرَمَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا بِالطَّبْعِ فَكَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنَ الْعَجَلَةِ"(١).

وقد تأتي (جعل) بمعنى خلق – وهو قليل– نحو قوله تعالى(وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ) أي خلقنا؛ لأنّه غير مراد منها التحوّل من شيء إلى شيء(٢)

وعلى هذا فإنّ الله – تبارك وتعالى – يُلفِت أنظارنا , ويوقظ أفكارنا, ويوجه عقولنا نحو التأمل والبحث العلمي في كوكب الأرض وطبقاتها وأحوالها ؛ لنصل إلى الحقائق والاكتشافات فنزداد إيمانا وعلما ونفعا.

و" كثر ذكر الجبال مع ذكر الأرض؛ لأنّ غَالِبَ سُكَّانِ الْأَرْضِ وَخَاصَّةً الْعَرَبُ لَهُمْ مَنَافِعُ جَمَّةٌ فِي الْجِبَالِ فَمِنْهَا مَسَايِلُ الْأَوْدِيَةِ، وَقَرَارَاتُ الْمِيَاهِ فِي سُفُوحِهَا، وَمَرَاعِي أَنْعَامِهِمْ، وَمُسْتَعْصَمُهُمْ فِي الْخَوْفِ، وَمَرَاقِبُ الطُّرُقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى دِيَارِهِمْ إِذَا طَرَقَهَا الْعَدُوُّ. وَلِذَلِكَ كَثُرَ ذِكْرُ الْجِبَالِ مَعَ ذِكْرِ الْأَرْضِ"(٣).

---

١ – التحرير والتنوير ٦٨/١٧

٢ – السابق ١٧/ ٥٦

٣ – التحرير ١٥/٣٠

- قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ ﴾[1] فالملاحظ من التدبر في مطلع هذه الآيات أنّ هناك بعضا من التحوّلات اللغوية, لعل أهمّها ما يلي:

أوّلا: تكرار كلمة (إذا) وتعدُّد الجمل المضافة إليها.

من الملاحظ أنّ تكرار (إذا) وتنوع الجمل التي أضيفت إليها؛ للإشارة إلى غايات إنسانيّة مطلوبة ومقاصد عظيمة محمودة منها :

- **الانتباه والترقُّب في سماع كلام ربِّ العالمين؛ للتمكُّن منه والتأمّل فيه.**

فـ (إذا) حرف يدعو إلى التشويق, وتكراره يدعو إلى الترقُّب والانتباه في سماع ما سيأتي بعده, فإذا سمع السامع الجواب تمكَّن منه أفضل التمكُّن, ولا شكّ أنَّ الانتباه والترقّب في سماع المعاني القرآنيّة غاية إنسانيّة عظيمة مطلوبة منّا للوصول إلى التأمُّل والتدبر في آيات الله[2] كما قال الله تعالى(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته)[3]

ثانيا: الابتداء بالمسند إليه(الشمس) دون المسند(كوِّرت), وكذا في الباقي.

---

١ – سورة التكوير آية ١ – ٥

٢ – التحرير والتنوير ١٤٠/٣٠

٣ – سورة ص من الآية ٢٩

يتضح أنّ (إذا) وقع شرطُها جملة اسميّة, وهي تختصّ بالدخول على الأفعال [1] والبدء بالمسند إليه(إذا الشمس كوِّرت) دون المسند(إذا كوِّرت الشمس) وكذا في نظائرها, يعطي مقاصد عظيمة ينبغي على الإنسان ملازمتها؛ ليستنير عقله, ويهتدي قلبه- منها:

- **الاهتمام بإثبات البعث, وتأكيد الحكم بوقوعه.**

لا شك أنّ البدء بالجملة الاسميّة بدلا من الفعلية مع (إذا) أقوى وأعظم أسلوبا في ثبوت الحكم بالبعث والاهتمام به ردّا على المنكرين, وعلى هذا فإنّ الاهتمام بيوم القيامة, والتأكيد على وقوع البعث من الغايات المقصودة والمطلوبة منّا استعدادا للحساب والجزاء[2] كما جاء في جواب (إذا) المتكررة (علمت نفس ما أحضرت) [3]

---

١ – معاني النحو د/ فاضل صالح السامرّائي ٢٠٦/٢ – دار الفكر للطباعة والنشر – ط١ – عمان الأردن – ٢٠٠٠م

٢ – التحرير والتنوير ١٤٠,١٤١/٣٠

٣ – سورة التكوير آية ١٤

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الطيبات, والصلاة والسلام على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم– وعلى آله ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد,,,

فقد أثبت البحث أنّ وراء التحوّلات اللغويّة مقاصد إنسانيّة مطلوبًا التفتيش عنها, والاهتمامُ والتمسك بها, وتطبيقها في جميع نواحي الحياة

وقد خلُص البحث إلى نتائج مهمّة, أبرزها ما يلي:

– ربط علم اللغة التطبيقي التحوّلات اللغويّة بقضايا المجتمع الإنساني(دينيّاً واجتماعيّا واقتصاديّا وثقافيّا) ؛ لأن اللغة بنت المجتمع تؤثر فيه وتتأثر به.

– كشف علم اللغة التطبيقي عن أهداف عمليّة واقعيّة ظهرت في صورة فوائد ومقاصد حقيقيّة.

– للتحوّلات اللغويّة في لغة العرب مقاصد في جميع نواحي الحياة الإنسانيّة يتمّ استخراجها بطريق القراءة والتدبُّر والاستنباط .

– التحوّلات اللغوية في نظام الجملة العربيّة كان بسبب تقديس العرب للمعاني؛ لبراعتهم وإبداعهم فيها, ولأنها التي تحمل مقاصدهم وأغراضهم .

– المقاصد الإنسانيّة تنبع وتبرز من اجتماعية اللغة وارتباطها بالإنسان .

–ارتباط نزول القرآن بلسان العرب , وطرائقهم وسننهم, واستشعاراتهم أدّى إلى التماس واستنباط المقاصد الإنسانيّة داخل الآيات القرآنيّة .

– تمثِّل التحوّلات اللغوية داخل تراكيبها زِمام المعنى المقصود والغرض المطلوب, وبدونها يذهب المعنى وتذهب صورته.

– التكامل الحضاري العلمي والمعرفي بين العلوم اللغوية والشرعية.

وعلى كلٍّ فهذه قطرة من غيث توصلت من خلال التطبيق والتحليل لبعض الآيات القرآنية إلى مجموعة من المقاصد المتنوعة حسب مجالات الحياة المختلفة(الدينيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة)

فمن المقاصد الملحوظة في الناحية الدينية :

- اهتمام المخلوق بالخالق البارئ – عزّ وجلّ–
- التأدُّب مع الله – تبارك وتعالى–
- حسن الظن بالله – سبحانه – في القرب والتقرُّب منه.
- الإحساس الدائم بحضور المولى –عزّ وجلّ–
- استشعار عظمة الله – سبحانه – في الاجتماع على العبادة
- المبالغة في التعظيم والثناء على الله – تبارك وتعالى–
- إغاظة المشركين في التوحد والاجتماع على عبادة الله
- إعلان الذلّ والخضوع والتواضع لله والتبرئة من التكبُّر
- التأكيد على اختصاص الاستعانة بالله وحده في كلِّ الأمور والأحوال
- الحرص على الإخلاص في العبادة والعمل
- التلذذ بذكر الله – تبارك وتعالى–
- **ومن المقاصد في الناحية الاجتماعيّة**
- استعمال البرهان للتأكيد على الصدق في الكلام.
- بثّ ونشر التعارف والتآلف والمؤاخاة بين الناس
- عدم التفاخر والتكبر على الناس
- تطبيق الحكم الإلهي (الناس سواسية لا فرق إلا بالتقوى)

ومن المقاصد في الناحية الاقتصاديّة

– الشُّكر لله على التكفُّل بالرزق ورعاية مصالح الأبدان وحياة الأرواح.

– التوكُّل على الله في ضمان الرزق توكّلا دائما متجددا يبعث الطمأنينة والأمان.

– التفرّق في الأرض والسعي في جميع الأماكن للحصول على الرزق.

– عدم التكدُّس في مكان واحد أثناء البيع والشراء ؛ لإيصال النفع إلى الخلق أجمعين .

– التوازن بين أعمال الدنيا والآخرة بالجمع بين أداء الطاعة والعمل من غير تضييع لأحدهما.

– تذكُّر اهتمام الله بالعباد وإكرامه لهم في أنّ تنزيل الرزق من أجلهم.

ومن المقاصد في الناحية الثقافية

- إعمال النظر والعقل في مخلوقات الله الكونية ؛ للإقرار والاعتراف بقدرة الله – تبارك وتعالى على بصيرة وإدراك.
- توجيه العقل إلى التأمّل العلمي في أحوال الأرض وأقسامها.
- الانتباه والترقُّب في سماع كلام ربِّ العالمين؛ للتمكُّن منه والتأمّل فيه.
- الاهتمام بإثبات البعث, وتأكيد الحكم بوقوعه.

توصيات البحث:

مواصلة البحث عن المقاصد الإنسانيّة والتطبيق العملي في لغة العرب لغة القرآن والسُّنَّة والشعر التي اختزنت أسرارًا كثيرة في ألفاظها وتراكيبها , ومقاصد عجيبة في معانيها وأغراضها.

المصادر والمراجع

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي – دار الفكر للطباعة – لبنان– ١٩٩٥م.

– الإغفال لأبي علي الفارسي تح د/ عبدالله بن عمر الحاج – طبعة المجمع الثقافي – أبو ظبي – ٢٠٠٣م – ١٤٢٤هـ

– التحرير والتنوير لابن عاشور: الدار التونسية للنشر والطباع – ١٩٨٤م

– تفسير الشعراوي= الخواطر للإمام محمد متولي الشعراوي – الناشر: مطابع أخبار اليوم.

– تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا – الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة النشر: ١٩٩٠ م.

– الجامع لأحكام القرآن=تفسير القرطبي: تح/ أحمد البردوني وغيره – دار الكتب المصرية –

ط٢ – ١٩٦٤م

– الجهود اللسانية عند مازن الوعر : رسالة دكتوراه / عامر بن شتوح – جامة قاصدي مرباح

ورقلة – كلية الآداب واللغات – الجزائر – ٢٠١٤م / ٢٠١٣م

– جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع تأليف/أحمد بن إبراهيم الهاشمي , ضبط د/ يوسف

الصميلي – المكتبة العصرية بيروت.

- الخصائص لابن جني تح/ محمد علي النجار – طبعة المكتبة العلمية.

– روح البيان للشيخ العلامة إسماعيل حقي الإستانبولي الخلوتي – دار الفكر – بيروت

– روح المعاني للألوسي تح/ د علي عبد الباري عطية – دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ

– سر صناعة الإعراب لابن جني – دار الكتب العلمية بيروت– لبنان الطبعة: الأولي ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م.

– سفر السعادة وسفير الإفادة للسخاوي تح/ محمد الدالي تقديم د. شاكر الفحام (رئيس مجمع دمشق) دار

صادر الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م.

– سنن أبي داود: تح/ د محمد محي الدين عبدالحميد – المكتبة العصرية بيروت.

– سنن الترمذي تح/ إبراهيم عطوة, وغيره : – مطبعة مصطفى البابي الحلبي– ط٢ – ١٩٧٥م

– شبكة الفصيح لعلوم اللغة العربية – منتدى النحو والصرف (خلق – فطر جعل) الفرق بينها في القرآن الكريم

د / محمد الجبالي .

– شرح الأشموني على ألفية ابن مالك – دار الكتب العلمية بيروت– لبنان – الطبعة: الأولى ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م

- شرح التسهيل لابن مالك: تح/ د عبدالرحمن السيد وغيره , ط١ – هجر للطباعة والنشر –

١٩٩٠م ١٤١٠هـ

- علم اللغة التطبيقي في التراث العربي (الجاحظ نموذجا)- دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية:

المؤلف/ جاسم علي – مجلد ٤٠ – عدد ٢

- علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية د/ عبده الراجحي- طبعة دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية – ١٩٩٥م

- فتح القدير للشوكاني- دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت الطبعة : الأولى – ١٤١٤هـ

- الفوائد لأبي القاسم تمام البجلي الدمشقي تح/حمدي عبد المجيد السلفي برقم ٤١٦- ١/١٧٧- الناشر:

مكتبة الرشد –الرياض –الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ

- الكتاب لسيبويه: تح/ عبد السلام محمد هارون –مكتبة الخانجي، القاهرة–الطبعة: الثالثة،

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري – دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة ١٤٠٧ هـ.

- الكليات لأبي البقاء الكفوي:تح/عدنان درويش – محمد المصري – مؤسسة الرسالة – بيروت

– لباب التأويل في معاني التنزيل لأبي الحسن الخازن: تصحيح/محمد علي شاهين – دار الكتب العلمية – بيروت–

ط١، ١٤١٥ هـ

– لسان العرب لابن منظور: دار صادر بيروت – ط٣ – ١٤١٤هـ.

– لطائف الإشارات للقشيري: تح/إبراهيم البسيوني – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط٣ – مصر.

– المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية :تح/عبد السلام عبد الشافي محمد – دار الكتب العلمية

بيروت الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ.

– مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيّم الجوزية :تح/ محمد المعتصم بالله البغدادي –

دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م

– المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي : د / رمضان عبد التواب – مكتبة الخانجي بالقاهرة – الطبعة:

الثالثة ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م .

– معاني النحو د/ فاضل صالح السامرّائي – دار الفكر للطباعة والنشر – ط١ – عمان الأردن – ٢٠٠٠م

– المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية بالقاهرة – الطبعة الثالثة – ٢٠٠٥م

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام: تح/ د مازن المبارك وغيره – دار الفكر دمشق –

ط٦ – ١٩٨٥م

- مفاتيح الغيب للرازي – الطبعة الثالثة– دار إحياء التراث العربي بيروت – ١٤٢٠هـ

- مقاييس اللغة لابن فارس: تح/عبدالسلام هارون – دار الفكر – ١٩٧٩م.

- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة د/ محمد راتب النابلسي : دار المكتبي – سورية – دمشق –

الحلبوني – جادة ابن سينا. الطبعة: الثانية ١٤٢٦– ٢٠٠٥م

- همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطي تح/ د عبد الحميد هنداوي – المكتبة التوفيقية مصر.